رمّان

إميل تـوما:
ريادةٌ في السياسة
وفي النقد

جان جينيه في
ذكراه المئوية

قريباً جداً

(بغني).. مع حبي..
أمل مرقس

الافتتاحية: السنة الأولى

ثقافية . فنية . فلسطينية
تحرير وإخراج فني: سليم البيك
العدد الثامن كانون٢/ ٢٠١١

romman.saleem@gmail.com
http://www.horria.org/romman.htm

قالوا لنا تلك شمسٌ تموتُ
فقلتَ لنا بل توارتْ لتُولَدْ

عن (الحكيم) لنصرالله

إبراهيم نصراللّه هنا

الكولاج خاص - سمير حزبون

إبراهيـم نصراللّه : المشاغب البريء الذي نحب

بقلم: رابعة حمّو

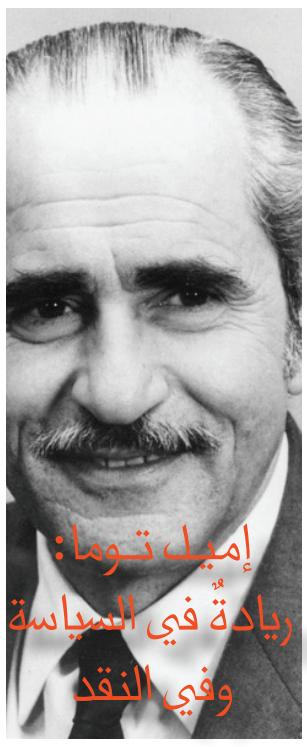

الافتتاحية

السنة الأولى

تكمل «رمّان» هنا سنتها الأولى بعد أن صدر عددها الصفر في ٢٠١٠/٠١/٠١. كان من المفترض أن يكون هذا العدد احتفالياً بعيدها الأول، وكنت -بصراحة- أنتظره، لكن لسبب ما لم يكن كذلك، ربما لم أجد حاجة للاحتفال بها وأنها لم تقدّم بعد للثقافة والفن الفلسطينيين ما أراه يستحق الاحتفال.

الأولى أن تكون هذه المناسبة فرصة للمراجعة النقدية لما «أنجزته» أو أخفقت في إنجازه هذه الجريدة الإنترنتية، ولعلّ أحد أهم أسباب نجاحاتها كانت مواد الغلاف، المحور الرئيسي للجريدة وأهم ما تحوي، وكذلك استمرار الجريدة بصيغتها الجديدة والمبتدعة، كونها إنترنتية: لا الكترونية تتوسل صيغة الموقع الالكتروني للوصول إلى القراء، ولا مطبوعة، بل جريدة PDF تأخذ من «المطبوعة» التصميم الفني الجمالي وتتوسل الإنترنت لتصل لقرائها. وكنت في افتتاحيات سابقة ذكرت «مبرّرات» هذه الصيغة، و «رمّان» المثال الأول (والوحيد) في الصحافة العربية على حد متابعتي القاصرة نسبياً.

أما بالنسبة للإخفاقات، فأكبرها كان فشل الجريدة في الانتقال من المبادرة الفردية إلى العمل و «التورط» الجماعي الجدي في تحريرها أو (على الأقل) المشاركة في إعدادها، «رغم» الحماسة قصيرة الأمد والنفس عند البعض. قد لا نلوم أحداً من هؤلاء طالما أن العمل في (والكتابة لـ) «رمّان» تطوّعي بحت، إضافة إلى افتقارها لإغراءات (أولاً) النشر السريع والفضفاض الذي تمنحه مواقع الإنترنت و(ثانياً) «الشرعية» التي تمنحها الصحف المطبوعة. وهنا أستثني بعض الأسماء التي ترددت في أعداد الجريدة.

ثم هنالك إخفاقات أخرى كفشل الجريدة في التحول للعمل الجماعي، ثم فشلها في التحول للعمل الجماعي، وأخيراً فشلها في التحول للعمل.. الجماعي.

وكل إخفاق آخر لاحق لذلك.

«رمّان» مستمرة بكل الأحوال رغم ما تتكلّفه من جهد ووقت، لأني أتيقن يوماً بعد يوم بأن الحاجة الملحة لصحيفة ثقافية فنية فلسطينية متخصصة تنقُضُ مشروعية السؤال عن احتمال توقفها، رغم تواضع هذه الـ «رمّان» في إمكانية الإجابة على هذه الحاجة وإلحاحاتها.

الاحتفال الأجمل لعيد الجريدة الأول سيكون حتماً هذا الحوار على يسار هذه الصفحة، كل المحبة والتقدير لابراهيم نصرالله.

الروائي والشاعر الفلسطيني إبراهيم نصرالله لـ رمّان:

باكتمال الرواية الجديدة، ستغطي (الملهاة) ما يقارب ٢٥٠ سنة

لعلّها من الأمور التي ستذكرها بفرح هذه الـ "رمّان"، أنها لم تكد تنهي عامها الأول حتى حظيت بحوار خاص مع الروائي والشاعر إبراهيم نصرالله، ويمكننا، بكل اطمئنان، أن نضيف إلى "الروائي والشاعر"، "المثقف الشامل/ العضوي"، فلنصرالله كتباً وكتابات في النقد السينمائي والفني والأدبي وفي السيَر وغيرها، ولعلّه من أهم الكتّاب/المثقفين الفلسطينيين الذين نقرأ لهم متيقنين، بكل اطمئنان، من أن المستوى الفني والجمالي لما نقرأ يضيف لـ، لا يُنقص من، عمقه التاريخي والوطني وانتماء كاتبه لشعبه من جهة، والإنسانية من جهة ثانية.

أوافق تماماً الصديقة رابعة حمّو، الباحثة الفلسطينية في الأدب الحديث، والتي ستقرأون لها هنا دراسة عن أدب نصرالله، حين قالت لي بالعامية الفلسطينية بأن إبراهيم "رايق وراقي".

خاص - رمّان

أجرى الحوار: سليم البيك

١. سنبدأ من الرواية التي باشرت في كتابتها منذ أشهر، وذلك بعد أبحاث استغرقتك سنيناً لتكوّن مادتك قبل الكتابة، ماذا تُحدّثنا عن الرواية؟ وهل هي كتاب جديد ضمن (الملهاة الفلسطينية)؟

- من الصعب الحديث عن عمل قبل أن يتمّ، ولكن أحداث الرواية تدور في فلسطين، بشكل أساس، وفي سورية ومصر بشكل جزئي. كانت رحلة البحث تجربة استثنائية بالنسبة لي، فلأول مرة أتعامل مع زمن بعيد، وشخصيات حقيقية، كما أن التعامل مع المخطوطات كان يحدث أيضا للمرة الأولى، وهي تجربة صعبة، فحين تستطيع فك خط مخطوطة ما، تفاجأ بمخطوطة أخرى تعيدك للبداية بخطها المختلف، والتحدي الأكبر هو إعادة بناء الحياة، بكل تفاصيلها على مدى قرن كامل.

أما عن مسألة وجودها ضمن مشروع الملهاة الفلسطينية، فهذا ما سيكون فعلا.

مشروع الملهاة هو تأمل للحالة الفلسطينية إنسانيا وفنيا واجتماعيا ووطنيا، عبر مائة وخمس وعشرين سنة، وحين تكتمل الرواية الجديدة، سيغطي المشروع مساحة زمنية يصل طولها إلى مائتين وخمسين سنة تقريبا

٢. لماذا مشروع (الملهاة)، هل من رسالة أردت قولها عبر سلسلة الروايات التي تحكي عن القضية بأزمنة وأمكنة مختلفة؟

- مشروع الملهاة هو تأمل للحالة الفلسطينية إنسانيا وفنيا واجتماعيا ووطنيا، عبر مائة وخمس وعشرين سنة، وحين تكتمل الرواية الجديدة، سيغطي المشروع مساحة زمنية يصل طولها إلى مائتين وخمسين سنة تقريبا. وبقدر ما هو (المشروع) رحيل في الزمان، فهو رحيل في الأمكنة أيضا التي عاش فيها الفلسطينيون أو اضطروا للعيش فيها.

أما ما أردت قوله فهو كثير جدا، فهناك مئات الشخصيات والأحداث، لكن المحصلة النهائية هي أننا شعب له وطن وله تاريخ ممتد وثقافة، وفيه ما في البشر كلهم من صفات، بعيدا عن الصورة النمطية التي حُشر فيها الفلسطيني كثيرا.

لكن الأمر المهم أيضا أنه مشروع فني أدبي يسعى للتعبير عن هذه القضية وهذا الشعب بفنية عالية، لأنني على يقين، وكما قلت منذ زمن طويل: إن القضايا الكبيرة تحتاج إلى مستويات فنية عالية للتعبير عنها. مع أنني أرى أن كل القضايا الصغيرة تغدو كبيرة أيضا، إذا كان التعبير عنها عالي المستوى.

٣. يُقال بأن التاريخ الحقيقي للشعوب يُقرأ من كتب الأدب لا التاريخ، هل ستطيق (الملهاة) هذا الحمل؟

- الرواية هي ما نسيه المؤرخون، هذا ما قيل دائما، وقيل إن مغرفة الروائي تصل إلى ما لم تصله مغرفة المؤرخ! الرواية قادرة على استيعاب كل شيء، ولكن ذلك يحتاج لفهم خاص لمسألة التاريخ في العمل الروائي. وهناك مفاهيم متباينة في هذا المجال.

لكن الملهاة بشكل أساسي رحيل في التاريخ الإنساني وتفاصيله، التي تتقاطع مع مفاصل التاريخ. أهم ما يمكن أن يقوم به الروائي هو الحفاظ على أداته الروائية وشروطها، وهي الرواية هنا، لكي لا يبتلع التاريخ الحدث الإنساني والشخصيات؛ وإلا سيتحول إلى مؤرخ، ومؤرخ فاشل أيضا.

دائما رأيت أن التاريخ أشبه بالسكر في الشاي، تتذوقه ولكنك لا تراه.

وفي ظني أن روايات الملهاة استطاعت أن تحمل بشر اليوم إلى بشر الأمس، ولعل أجمل ما سمعته من تعليقات الشباب تعليقا يقول: إن الملهاة الفلسطينية كانت أشبه بآلة الزمن التي حملتهم ليعيشوا الحياة التي عاشها آباؤهم وأجدادهم.

وبالمناسبة، جيل الشباب يهمني كثيرا رأيه، وأنا سعيد أنه يشكل قطاعا عريضا من قرائي في فلسطين وخارجها.

لكن الأمر المهم أيضا أنه مشروع فني أدبي يسعى للتعبير عن هذه القضية وهذا الشعب بفنية عالية، لأنني على يقين، وكما قلت منذ زمن طويل: إن القضايا الكبيرة تحتاج إلى مستويات فنية عالية للتعبير عنها. مع أنني أرى أن كل القضايا الصغيرة تغدو كبيرة أيضا، إذا كان التعبير عنها عالي المستوى.

٤. بتّ أخيرا تميل إلى الروايات كبيرة الحجم كما في (زمن الخيول البيضاء) وربّما روايتك التي تعمل عليها الآن، هل أتى ذلك لشعورك بأن هنالك الكثير ليقال عن تاريخنا الفلسطيني؟ هل حقًّا هنالك الكثير مما لا نعرفه؟ ولماذا التركيز مؤخرا على المراحل التاريخية في ما قبل النكبة في فلسطين؟

- لم يكن هناك قرار في أي يوم من الأيام أن أكتب رواية طويلة، بل كان لدي قرار بألا أكتب رواية يزيد عدد صفحاتها على مائة وثمانين صفحة، ورواياتي الثلاث الأولى كانت كذلك.

ولكنني حينما كتبت طيور الحذر، وصلت لهذا العدد من الصفحات، واكتشفت أن الرواية لم تنته، وهكذا تعدت ثلاثمائة صفحة بقليل.

ثم عدت وكتبت روايات في حدود ١٤٠ صفحة مثل (أعراس آمنة). لكن طول الرواية ليس بيد الكاتب أحيانا، كما حدث في (زمن الخيول البيضاء)، ويحدث الآن في الرواية الجديدة، لأننا نتحدث عن رواية أجيال وأحداث تدور في أزمنة كثيرة. لكن الطول في النهاية أو القصر ليس هو المهم في ظني، المهم أن تستطيع الرواية شد القارئ إليها، وقد فوجئت أن عددا كبيرا من القراء كانوا مستائين لأن زمن الخيول انتهت. مع العلم أننا عملنا الكثير عند إخراجها ككتاب على تقليل عدد صفحاتها، ففي الإخراج الأول كان عدد صفحاتها ٧٣٠ صفحة.

في الحقيقة أكثر ما يؤلمني في هذه القضية هو تواطؤ الدولة مع مجتمع القبيلة بشكل سافر، وجبن مؤسسات التشريعية، ممثلة بالنواب وتخلّفهم وهم يسايرون حكم القبيلة، حين يقرّون قوانين تخفف الحكم على القتلة

٥. ألم ترهقك (الملهاة)؟

- الملهاة مرهقة لأنها بحاجة إلى بحث كبير، ولكنها على المستوى الفني متعة، لأنني بين رواية وأخرى أحاول ابتكار أشكال جديدة وأتعرف إلى بشر وأصبح مسؤولا عنهم.

أحس بأن لدي مئات الأبناء الآن، وهذا أمر غريب، بعضهم أكبر مني عمرا وبعضهم أصغر، نساء ورجالا، وأحس بمسؤولية كبيرة تجاههم وقد أتيت بهم إلى هذا العالم.

بالطبع، هناك الطيبون وهناك الأشرار وهناك الشجعان وهناك الجبناء، وهناك الجميلات وهناك الأقل جمالا.

ولذلك الإرهاق ليس واردا بالمعنى الحرفي، إذ لا يمكن أن نقول إن مصر أرهقت نجيب محفوظ، لأن مصر التي في أعماله، ليست بالضرورة مصر نفسها، إنها مصرُهُ هو، كما هي فلسطين فلسطيني أنا في الملهاة، وحينما يكتب روائي آخر رواية عن فلسطين فهو يقدّم لنا فلسطينه هو، لا فلسطيني أنا، حتى لو تقاطعنا كثيرا، لأننا نقدم رؤانا لفلسطين، والرواية هي رؤية ورؤيا، وخارج هذا ليست أكثر من حكاية، أو حكايات.

٦. لك أيضا سلسلة روايات تعرف بـ (الشرفات). ماذا تقصد بـ (الشرفات) وما الذي يميز بينها وبين سلسلة (الملهاة)؟

- مشروع (الشرفات) هو الوجه الآخر للملهاة الفلسطينية، إنه الوجه العربي، وقد أحسست أننا لا نستطيع أن نفهم ما حدث ويحدث لفلسطين إلا إذا فهمنا ما يحدث للإنسان العربي. ولذلك كانت أحداث الرواية الأولى (شرفة الهذيان) تدور في أجواء (حروب الخليج)! وما فعلته في البشر، والثانية (شرفة رجل الثلج) تدور حول أعتى أنواع سحق روح الإنسان العربي وتحويله إلى كائن هلامي عاطفيا ووطنيا وإنسانيا. فقد مضى الزمن الذي كانت الدولة ترى فيه المناضل أو السياسي أو المثقف باعتبارهم الخطر، لقد حوّلت في الحقيقة كل إنسان إلى خطر يهددها، وهكذا سحقت شعوبها.

إن المشكلة الكبرى التي نعانيها اليوم كعرب بمن فيهم الفلسطيني هي ضياع القيم وغيابها. ولذلك يهمّني كثيرا أن تكون القيم الكبرى جزءا مما أكتب، شعرا وسردا. وهي بالمناسبة المرة الأولى التي أكتب فيها عن شخص قائد.

أما (شرفة العار) فهي حول ما يسمى (جرائم الشرف) وهي تأمل لحال المرأة وما تعانيه من ظلم وقهر، خارج هذه الجرائم وداخلها، وفي ظني أننا لا يمكن أن نتحدث عن مجتمع سويّ قادر على التقدم وقادر على الحياة ما دامت المرأة مسحوقة فيه إلى هذا الحد.

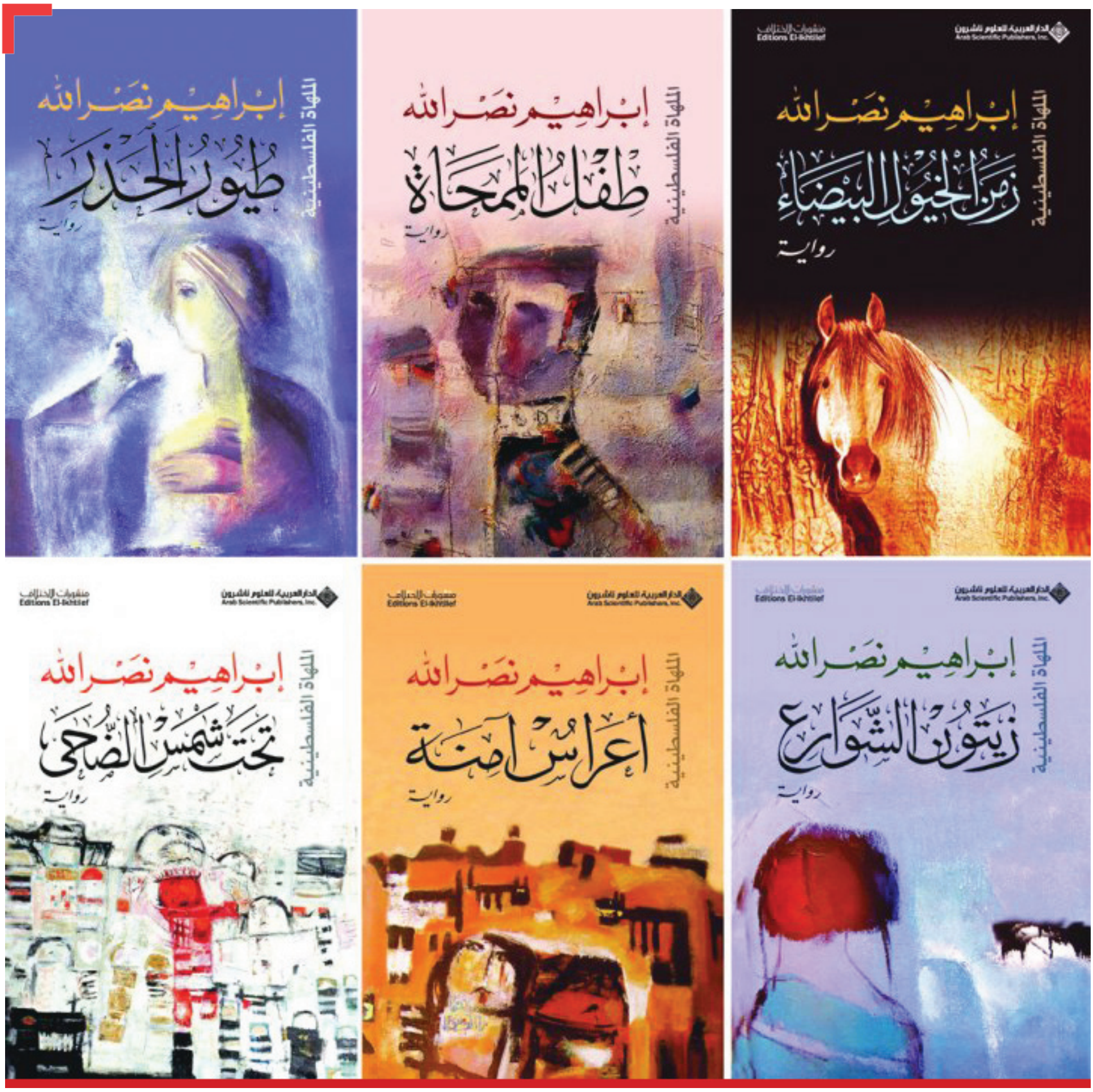

٧. بالنسبة لـ (شرفة العار)، ما الذي أردت قوله في جريمة تضاهي كل الجرائم بشاعة؟
- فـي الحقيقة أكثر ما يؤلمني في هذه القضية هو تواطؤ الدولة مع مجتمع القبيلة بشكل سافر، وجبن مؤسسات التشريعية، ممثلة بالنواب وتخلّفهم وهم يسـايرون حكم القبيلة، حين يقـرّون قوانين تخفف الحكم علـى القتلة. وأراهم بذلك يضعون السـلاح في يـد القاتـل ويدفعونه لارتـكاب جريمته بلا قلق على مصيره.
ويؤرقنـي أيضا أن المجتمع يتصرف في هذه القضية باعتباره أقوى من الدولـة وأقوى من القانون وأقوى من الدين.
ويؤرقني أن كثيرا من الجرائم ترتكب باسـم الشرف لكن لا علاقة للشـرف بهذا، فأحيانا تصفّى الأخوات لأسـباب مادية بحتة، وأحيانا لمجرد الشـك، الذي يسكن نفس رجال مرضى.

٨. هـل هنالـك في قصائـدك ما يوازي مشـروعك الروائـي في (الملهـاة الفلسـطينية)؟ وهل تميل أكثـر إلى إبراهيم الشـاعر أم الروائي؟ ومن منهما يستنـزفك أكثر ومن منهما الأقرب إلى نفسك؟
- هنـاك أعمال شـعرية، ولا أقول دواوين شـعرية، أعتبرهـا جزءا مـن الملهـاة الفلسـطينية، ويمكن أن تنـدرج تحت هذا العنوان ببسـاطة، مثل (الحوار الأخيـر قبل مقتل العصفور بدقائـق) و (الفتى النهر والجنرال) و (بسـم الأم والابـن) و (مرايا الملائكة) والأخيران سـيرتان، الأول شـعرية (واقعية) لأمي، والثانية (متخيلة) للشهيدة الطفلة إيمان حجو.
وكذلك هناك رواية (مجرد ٢ فقط) التي أعتبرها جزءا أساسـا من الملهاة، رغم أنها لـم تندرج تحت هذا العنـوان، لأنها كتبت قبل تبلوره. وهي تسـد فراغا كبيـرا فيه، لأنها تتحـدّث عن المذابـح التي تعرض لها الفلسـطينيون على مدى خمسـين عاما، وقد أضمها للملهاة في طبعة لاحقة، لأنني لا أظن أنني سأعود للكتابة عن المذبحة من جديد.
أما لأيهما أميل: الشعر والرواية، فهذا سؤال صعب، إذ لا يمكننا أن نسأل الطائر أي جناحيك أغلى وأقرب إليك، إنهما هو.

٩. قـد تبعـد قصائـدك عـن التاريخ والهـم الوطني والاجتماعي، جانحة نحو الذاتي بخلاف رواياتك، هل هذه هي طبيعة الأشياء، أقصد عند الشعر والرواية، أم أن الأمر أتى عن وعي مقصود لهذا الفصل؟
- تجربتي الشعرية مرت بمراحل كثيرة، وتنوّعت، وأنا مع تنوع الكاتب داخل تجربته، فمن القصائد القصيرة ذات الموضوعات الإنسانية، إلى القصائد الملحمية، إلـى قصائـد الرباعيات، إلى قصائد السـيرة، وصولا إلى ديواني الأخير (لو أنني كنت مايسـترو)، هناك

الأدب الحقيقي هو ما يصوغ هويتنا الوطنية والإنسانية، ولم يلعب أي كتاب دورا مهما مثل ذلك الذي لعبه [كتاب] الأدب الفلسطيني الذي كتبه عشرات المبدعين الكبار

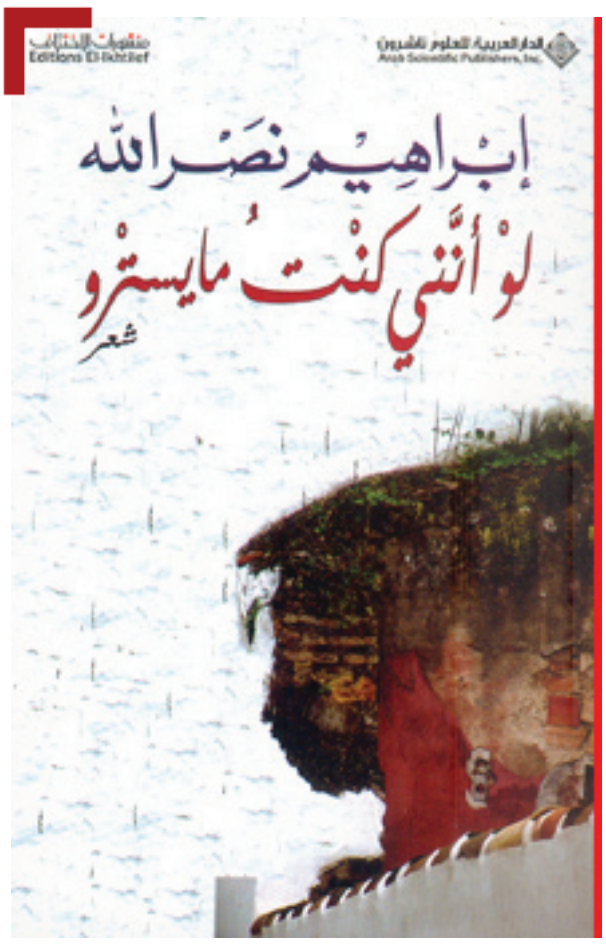

السَّفر حين يُسْفِرَ

لـم يكن الفتى الخارج من بحيرات الطين في المخيّم ليلاحق العصافير في الجبال الجرداء التي توغل في جنوب المدينة، وقد اتخذ قراره تعليم الطير حذر الوقوع في الشراك المنصوبة، يحلم أكثر من أحلام العصافير ذاتها: مزيداً من الأجنحة للتحليق بحريّة في آفاق لم يبلغها مسافر!

فـاروق وادي

في سـفره الأوّل إلـى الصحراء الأكثر قسـوة ونأيـاً.. الصحراء المُسـرفة في الرمل والكآبة والوحشـة، اكتشف الشّاب، في ليـل الغربة الطويل، أن للقصائـد أجنحة، وأنها قادرة على بلوغ أمكنة لا تتبلغها الكائنات. فكان أن اسـتجاب لما اقترحه الشّعر ، وحلّق معه إلى أقاصي الخيال.
لكـن عصفور الشِّـعر لم يكن لينـأى بعيـداً دون أن يلتقط رؤاه ونبض قلبه من بدنٍ الأرض، من ذرّات التراب ونبض البشر. وكان عليه أن يكون قادراً، بمنقاره الحاد الصغير، على كسر الأقفاص التـي حاولوا زجّ القصيدة بيـن جدرانها، وأن يواصل تغريده دون وجل.
***
عندما امتهن إبراهيم نصر الله الخيال، وربّاه كما يربي العصافير والسلاحف، لم يكن يظنّ أن القصيدة، التي تُحلّق معه ويُحلّق معها في الفضاءات التي لا يحدّها سـياج، سـوف تحمله إلى تلك البقاع البعيدة المنتشرة على حواف الخرائط.
ذات ليلـة، كنّا نسـهر معاً، نوغـل في الليل وأحاديث السّـفر والكتابـة، وكان إبراهيم يواصل بسـط خرائطه وسـرد حكايات رحلته مع القصيدة نحو قلوب البشر. تحدّث عن أمسيات شعريّة قريبـة وبعيدة: قريبة فـي المكان وبعيدة فـي الزمان، وأخرى قريبة في الزمان وبعيدة في المكان، حيث طار مع الشِّعر إلى بلادٍ لم تكن لتخطر ببال، حتى في الأحلام المتطرّفة لإنسـان لا يكف عن حلم الطيران.
كنت أصغي إلى سيرة إبراهيم نصر الله الطائرة، عندما قلت له إن التجربة التي تحكي رحلة القصيدة ومعاركها للوصول، وقدرة الشِّعر على السّفر، تستحق أن تُكتب.
ولقد احتجتُ إلى بضع سنواتٍ لأقرأ كتاباً كنتُ أوّل المُحرّضين على كتابته، وجاء تحت عنوان "أقل من عدو.. أكثـر مـن صديـق" ، فبدا لي، بعد أن فرغت مـن قراءته، أنني أقرأه للمرّة الثانية، بعد أن كنت قد سـمعت تفاصيله مرويّة، مع التأكيد على أن الحكّائين بالكتابة يظلون أجمل وهم يمارسون حرفتهم من خلالها، أكثر من أحاديث الشفاه.
***
لـم يكن من السّـهل على صوت الشـاعر أن يُحلّق في سـاحات مُدنٍ لا تعرف لغته ولا يعـرف لغتها ليُلقي بقصيدتـه لأهلها، إلاّ لأنه، هو نفسـه، خاضٍ من قبل معركة وصـول القصيدة إلى الناس في مكانه ومكانها، كاسراً دوائر القهر. وهي من المعارك المبكّرة التي لم يتردد إبراهيم في خوضها بشرفٍ يستحق منا التنويه والإشادة، ومنه الكتابة والشهادة.
ربمـا يكون أحـد قادة الأعداء المنتصرين، هو الذي أعاد لفت انتباهنا، بعـد هزيمة حزيران، إلى تلك الفعاليّة الخفيّـة للقصيـدة، وقدرتها على الوصول إلـى الوجدان، لينبعث منها رهط من الشـباب المدججين بالوعي والسـلاح، حين قال إن قصيدة لشـاعرة فلسطينيّة تُنبت عشرة فدائيين. لكن الجنرال العدو، نبّه في الوقت نفسه، أعداء الشِّعر، إلى تلك الطاقة الهائلة الكامنة في روح الشِّعر!
لقد أخذت القصيدة تتشـكّل في وعي شـاعر شـرع يتشـكّل، بإيمان مُطلق بفاعليّة الشـعر. وفي الأزمنة التي كان يُحاصر فيها الإيقاع والمعنى، ويُداهم بيت الشِّـعر، كان إيمان الشّـاعر بأن خوض أمسـية شعريّة يعادل عمليّة فدائيّة، لأن إشعال الموسيقى في الظلام، ظل يعني كسراً مؤزراً لحاجز الخوف.. ولكل أشكال السجن والملاحقة والحصار.
***
كتـاب إبراهيـم نصر الله هذا قد يكون في عنوانه العريض عن السّـفر؛ عن الإنسـان؛ عـن الأنا والآخر الذي ليس عدواً مُطلقاً وهو أكثر من صديق؛ عن تجربة الشعر في الحياة والحياة في الشِّعر؛ عن حكاية القصيدة وسـيرتها حتّى بلوغها وجدان الآخر.. تُحرِّضه على اليقظة حتى يرانا عبر مُنجزنا الإبداعيّ والإنسـاني، ومن خلال خطاب بسيط يقول: لقد بذلنا جهداً لنتمكّن من أن نرى روحكم، فاصغوا إلى همس أرواحنا حتّى تزيلوا الغشاوة وترونا كما نحن، دون أفكار مسبقة وخيالات متطرّفة.
الرحلة في الكتاب لا تأخذ خطاً مستقيماً، زمانياً كان أو مكانياً، فهي تستند إلى تقنيّة روائيّة لا تتخلى عن حريّتها بالارتداد أنّى شـاءت، والاسـتجابة لغواية الحديث عن تجربة سـبقتها وسكنت في الذاكرة، أو كادت تتوه في ثنايا النسيان، دون أن تفقد رحلة الكتاب خطّها الأساس، وأعني رحلة الكاتب إلى "كولومبيا"، التي بدأ بها صفحاته الأولى وأنهي صفحاته الأخيرة، من غير أن تفقد نفسها حين تُخلى الصفحات الطوال للحديث عن رحلات وتجارب عديدة تقطعها وتتقاطع معها.
ولأن كاتب الرحلة يمتلك حساسيّة الشاعر ولغته الشفيفة وبراعة السّرد الروائي وعين الفنان التي تواصل سـيرتها اللمّاحة، فإن التفاصيل تتطوّع دائماً لتشـكيل المشـهد. ولأن الكتاب يحتشد بمثل هذه التفاصيل، فإننا نكتفي بالإشارة إلى شذراتٍ منها تقارب الشِّعر واللقطة المُكتملة، أو ربما إننا سنراها في المستقبل وقد تحوّلت إلى قصيدة أو مشهد روائي، دون أن يعني ذلك شرطها للتحقق، لأنها حين اكتفت بذاتها ـ كما وردت في الكتاب ـ ضمنت تحققها الفني: جذع شـجرة هرمة في مدريد يمرّ كلمح البصر ويتشـبّث بشِـباك العين؛ شـاعر يكره الشِّـعر ويعشـق التبغ بشراسـة؛ صبيّة عمياء تأتي مُصغية إلى الشعر الذي ينصاع لها ويعبر تجاويف العين؛ عجوز على مشـارف عقده السـابع يقف كالعملاق بلحيته البيضاء ليُطلق مع القصائد، في سـاحة الشِّـعر، وبحماسة لا تلين، فقاعات الصابون للأطفال، دون هدفٍ أو مُقابل. وغيرها العشرات من التفاصيل الثريّة التي تحيل حديث الرحلة فناً حاذقاً، وتجعل السفر طوافاً دائماً تمنحه الكتابة بقاءً.
***
يقول الشيخ محي الدين بن عربي: "السّفر إذا لم يُسفر لا يُعوّل عليه"...
أمـا سـفر إبراهيم، في القصيدة التي منحتـه أجنحة، وفي الخريطة التي انبسـطت أمامه ليطوف أرجاءها القصيّة، فقد أسفر عن كتاب جميل، يمكن وصفه، دون تردد، بسفر السّفر.
وإذا كان لي أن أبتهج، بشكل استثنائي وخاص، فلأن تحريضي إبراهيم، في تلك الليلة البعيدة، لكتابة هذا الكتاب، لم يذهب سُدى!

مساحة زمنية كبيرة: ثلاثون سنة على الأقل. وفي كل مرحلة عمرية هناك أسئلة مختلفة تؤرق روح الشعر والشاعر.
ولا أبالغ إذا قلت إن أكثر ما فعلته في رواياتي هو أن أخفف الجانب السياسي، ليحتل الجانب الإنساني المشهد، فرواية مثل (أعراس آمنة) مثلا، ليست عن غزة وحصارها وأوضاعها فقط، إنها عن الموت بكل أبعاده، ورواية مثل (طيور الحذر) ليست عن المخيم، بل عن الطفولة التي تعقد حلفا مع الأجنحة وفكرةِ الحرية، ورواية مثل (زمن الخيول البيضاء) رواية حب وبطولة وعشق للخيل وفلسطين. وهكذا.
ولعل بقية رواياتي كذلك، لأن روح شعري تتسلل إليها وتسكنها دائما، كما يتسلل السرد ليسكن عديد قصائدي وأعمالي الشعرية.
إن شخصية ريحانة مثلا، وهي الشخصية الأقرب إليّ في زمن الخيول، ولدت قبل ذلك في رباعية شعرية، تحدثت عن أربع شخصيات: قاتل، وقتيل، وحبيبة-زوجة، وحصان.

١٠. أتذكر قبل حوالي سنة، أهديتني تسجيلا صوتيًّا لك تلقي فيه قصيدتك (الحكيم) من ديوانك الأخير (لو أنني كنت مايسترو). ما الذي يمثّله لك جورج حبش كشخصية سياسية/ثقافية/فكرية وهو القائل بأننا لم نخسر الجبهة الثقافية، وأنها هذه معركتنا. وأنت بنتاجك في الرواية والشعر والدراسات أحد أسباب قوتنا في هذه المعركة؟
- الحكيم قيمة كبيرة لا يمكن أن يكون للزمن الذي نعيش طعمه لو لم يوجد مثل هذا الرجل فيه، ومن هم مثله. إن المشكلة الكبرى التي نعانيها اليوم كعرب بمن فيهم الفلسطيني هي ضياع القيم وغيابها. ولذلك يهمّني كثيرا أن تكون القيم الكبرى جزءا مما أكتب، شعرا وسردا. وهي بالمناسبة المرة الأولى التي أكتب فيها عن شخص قائد.
غسان كنفاني يعني لي الكثير في هذا المجال أيضا، ورواية (أعراس آمنة) تحية له، لأنني على يقين من أن الأدب الحقيقي هو ما يصوغ هويتنا الوطنية والإنسانية، ولم يلعب أي كتاب دورا مهما مثل ذلك الذي لعبه (كتاب) الأدب الفلسطيني الذي كتبه عشرات المبدعين الكبار.

١١. ما الذي يمكن للأدب أن يقدّمه في حرب ثقافية مع جهة كالصهيونية بكل ما لديها من نفوذ ورأسمال ومؤسّسات منظمة؟
- لنسأل أنفسنا السؤال مقلوبا: ما الذي قدمه الأدب الصهيوني لهذا الكيان العنصري المسمى (إسرائيل)؟ لقد ساهم في بناء هذه الدولة أكثر مما ساهم أي جندي أو مستوطن، بل إنه يد المستوطن التي تقتل وتقتلع الزيتون لبناء مستوطنة.

لأن السلطة الفلسطينية تنظر للفن المعبر عن شعبنا كمحاولة من الفنانين لتعكير صفو علاقتها بالعدو!

ولذا، ليس لدي شك أبدا في قدرة الأدب الفلسطيني على زرع الزيتون المقتلع من جديد في روح البشر في انتظار اليوم الذين يعيدون فيه زراعته في مكانه بأيديهم. وإذا ما كان لأدبنا من أهمية، فهي تلك الأهمية الكبرى المتمثلة في أنه لم يسمح بهزيمة القضية الفلسطينية وعدالتها في أرواح الفلسطينيين والعرب والإنسان في كثير من بلاد العالم. لقد حسم الصهاينة كثيرا من المعارك العسكرية لصالحهم، لكنهم لم يستطيعوا حسم المعركة مع حبنا لفلسطين

لأني ما زلت أتمنى أن أخرج فيلمي الخاص، وما زالت الأمنية القديمة في مجال الموسيقى أساسية، ولكن من الصعب الآن البدء

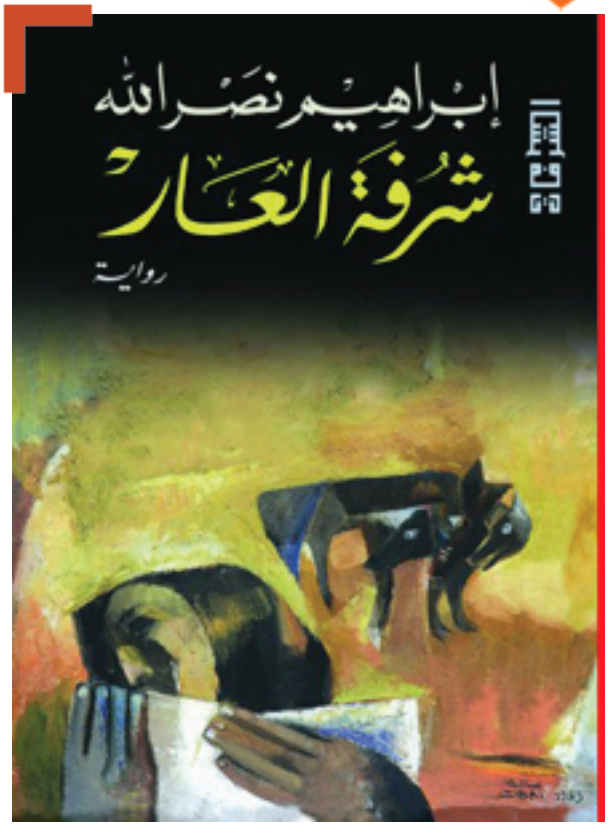

وتمسكنا بها جيلا بعد جيل.

١٢. للوبي الصهيوني كلمة مسموعة عند صنّاع السينما في هوليوود، والسينما أحد أشكال المواجهة، كيف ترى السينما الفلسطينية في العقدين الأخيرين؟
- أعتقد أنه لا يمر أسبوع واحد إلا ويكون هناك فيلم أو كتاب أو مسرحية عن (مآسي) اليهود. وهم يملكون كل شيء في الحقيقة، ويعملون كمؤسسات كبرى، وهذا غير موجود لدينا، لأن السلطة الفلسطينية تنظر للفن المعبر عن شعبنا كمحاولة من الفنانين لتعكير صفو علاقتها بالعدو!
ولذلك كل العمل الإبداعي الفلسطيني اليوم، شبه فردي، باستثناءات قليلة، مثل مؤسسة عبد المحسن قطان التي تقوم بدور عظيم في المجالات الفنية والأدبية والتعليمية كافة.
أتابع السينما الفلسطينية بصورة ممتازة، ويقلقني تذبذب المستوى، وعدم وجود تصاعد فني يمليه التراكم. تبدو التجارب مقطوعة عن بعضها البعض، ولأنني أشاهد أفلاما كثيرة من العالم، أجرؤ على القول إننا لم نحقق شيئا كبيرا. هناك بعض الأعمال الجيدة فعلا، لكن يلزمنا الكثير، ولعل مسألة إصرار السينمائيين الفلسطينيين على كتابة أفلامهم جزء من ركاكة هذه الأفلام في حالات كثيرة، إنهم لا يرون هذا الكم الهائل من الأعمال القصصية والروائية التي لدينا. أعجب مثلا كيف لم يتقدّم مخرج لتقديم رواية (المتشائل)، والتي نجحت كثيرا كمسرحية حين قدمها وما زال الفنان محمد البكري؟ كما أن قصص غسان، والتي هي أغنى بكثير من تجربته الروائية يمكن أن تغني السينما، وحتى بعض رواياته التي قدمت في السابق سينمائيا، من الممكن اليوم إعادة إنتاجها، وإعادة الاعتبار فنيا لبعضها. أظن أن الركاكة في حالات كثيرة تعود إلى سبب واحد هو أن كثيرين من مخرجينا لا يقرأون.

١٣. أصدرت حديثاً كتاب (صور الوجود/ السينما تتأمل)، ويحوي مقالات في النقد السينمائي، وقبله كتاب (هزائم المنتصرين/ السينما بين حرية الإبداع ومنطق السوق). أود أن أسألك عن نوعيّة الأفلام التي تحبّها، وعن أكثر الأفلام التي أحببتها، ومن هم مخرجيك وممثليك المفضلين؟
- أرى كل الأفلام، وأحب بعضها، أراها لأن علي أن أرى ما يشكل البشر هذه الأيام، والسينما جزء أساس في هذا المجال، وهذا ما أحتاجه كروائي، واعني، حتى، السينما التجارية، كما أرى أفلام أوروبا والعالم الثالث. أتمنى أحيانا أن أكتب عن بعض الأفلام التي أشاهدها، ولكن الوقت أصبح يضيق والأدب بحاجة إلى عمل كثير

إيرلندا - مع تمثال الشاعر باتريك كافاناه

خاص - رمّان

ومتواصل.
أحب كمخرجين: تورناتوري وفيلليني ولوميت وسكورسيزي وكارلوس ساورا والمودفار وأكيرا كيراساوا، وألن باركر، ومن العرب أحببت أعمال جيل السبعينات، رضوان الكاشف ومحمد خان وداوود عبد السيد وعاطف الطيب وأحب حديثا أعمال محمد أمين وكاملة أبو ذكري وسواهم.
ومن الممثلين، جاك نيكلسون ودي نيرو وباتشينو وإدوارد نورتون وكابريو في أدواره الأخيرة، ومن العرب أحمد زكي ومحمود عبد العزيز ومحمود مرسي وأحمد مرعي وممثلات الستينات. ومن الممثلات: تشارليز ثورن وسكارلت جوهانسون، هما جمال فائض عن الحد ومواهب أصيلة أيضا.
أما الأفلام، فأحب لورنس العرب، وابنة ريان، ولم أزل، وفيلم سينما باراديسو وأسطورة ١٩٠٠، وحدث ذات مرة في أمريكا وسلسلة العراب وعربيا: القاهرة ٣٠ وليل وقضبان والحرام والفتوة والزوجة الثانية، والبريء والكيت كات وليه يا بنفسج وإخراجا أنا مفتون بأعمال الراحل صلاح أبو سيف وقد أهديت كتابي الأول عن السينما إلى روحه..
الحقيقة من الصعب أن يعدد المرء، ولكن باختصار: أحب السينما.

١٤. هل من رابط بين فن السينما وبين الكتابة الروائية، خاصة وأني لاحظت روحاً سينمائية في بعض رواياتك؟
- بالطبع، فالرواية كانت المعلم الأول لكتّاب السيناريو، ولكنها اليوم تعود وتتعلّم منهم. وعلاقتي بالسينما انعكست بصورة كبيرة في أعمالي، ومنذ البداية، وأظن أن غياب أثر السينما عن كتاباتي سيُحدث فيها نقصا كبيرا.

١٥. لو كان لك أن تختار، أكنت اخترت أن تكون أديباً كما أنت، أم سينمائياً، أم مايسترو؟
- كنت سأختار كل شيء.

١٦. لماذا؟
- لأني ما زلت أتمنى أن أخرج فيلمي الخاص، وما زالت الأمنية القديمة في مجال الموسيقى أساسية، ولكن من الصعب الآن البدء. ولذلك كان ديواني الأخير (لو أنني كنت مايسترو) مشغولا بالأمنيات التي تركتها ورائي وتركها البشر وراءهم على أكثر من مستوى.

١٧. ما أنواع الموسيقى التي تحب؟ وهل من أسماء لموسيقيين أو مغنيين تحب أن تسمع لهم؟
- أحب موسيقى الشعوب، أحسها رحلات رائعة في دبيب أرواحهم على صفحة الجمال، وأعمال بيزيه، وتشايكوفسكي، وياني، وموسيقى الجاز والعزف المنفرد على العود والغيتار. وأحب الاستماع لكل

بعض المواقع الثقافية مؤثرة، ومتابَعة بشكل جيد، واستطاعت أن تكسر مافيات الصحف الورقية التي تعاني منها كثير من صحفنا، بسبب تحوّلها إلى ممالك للقائمين عليها وأصدقائهم. في الإنترنت ديمقراطية مهمة وجرأة عالية على كسر الاحتكار.

الأغنيات، الخفيفة والثقيلة، ولا أعتبر أغنية لطيفة جزءا من هزائمنا. لكن يبقى هناك مكانة خاصة لفيروز وأم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم ووردة وفايزة أحمد ونجاة، وأحب كاظم الساهر وعلي الحجار وزياد الرحباني ووديع الصافي ونصري شمس الدين ومحمد عبده وطلال مداح وأبو بكر سالم وشيرين وأنغام وأصالة ولطيفة التي فتنتني تجربتها مع زياد الرحباني....

١٨. سأرجع إلى الأدب، لمن تحبّ أن تقرأ؟ وما الكتب التي أثّرت بك؟ وهل تتابع الكتابات الفلسطينية الشابة؟ وما رأيك بها؟
- أحب أن أقرأ الكتاب الذي يثير غيرتي وشهيتي ككاتب، أحب الكتب التي أتعلم منها. منذ فترة كنت أقرأ رواية ماريو فارغاس يوسا (الفردوس على الناصية الأخرى) فتنتني قدرته في الرواية على أن يكون ناقدا في الفن التشكيلي إلى هذا الحد، وهو يتحدث عن بطل روايته: غوغان، وهو فنان مفضل لدي.
أما الكتب التي أثرت فهي كثيرة، وليس شرطا أن تكون أعمالا أدبية، فحين اكتشفت أنني سأكون كاتبا وجدت أن علي أن أقرأ كل شيء، فابتدأت من الملاحم والمسرح الإغريقي حتى مسرح العبث مرورا بالشعر والرواية.
بالنسبة للكتابات الفلسطينية الشابة أتابعها، وهناك أسماء رائعة، لكن ما يحزنني في جيل الكتاب الشباب العرب أن كثيرين منهم يبدأون حياتهم بالتمرد كمشروع لهم، وليس بالكتابة المتمردة فعلا، إنهم غاضبون ويريدون إزاحة من سبقوهم من الطريق بأسهل الوسائل: عدم قراءتهم!! ولكن كثيرا من هذه المواهب في النتيجة لا تقدم شيئا. ببساطة لأن الذي لا يستطيع أن يتعلّم لا يستطيع أن يُعلِّم.

١٩. لمن لا يعرف، أنت أيضاً ترسم وتصوّر ولك نتاج في ذلك، هل هي هدنة تعقدها بين كتابة وأخرى؟ أم استكمال للكلمة المكتوبة ولكن عبر الفنون البصريّة؟
- ربما هي الظروف التي تساعد أحيانا، فمنذ زمن لم أرسم، لكن التصوير هوايتي التي تأخذ حقها في السفر، حيث أصور كثيرا في البلاد التي أزورها، ومقياس نجاح ومحبة أي بلد أزوره هو عدد الصور التي التقطها لهذا البلد. وحين أعود والكاميرا خالية من الصور أعرف أن الزيارة كانت متواضعة جدا.
لكن التصوير فتح عيني جيدا على ما كنت أمر به من قبل ولا أراه، وبالتالي فتح عين كتابتي وكلماتي أكثر.

٢٠. لعلّي لا أكشف سراً إن قلت بأن لك حساباً على الفيسبوك، وأنا واثق بأن الكثيرين سيتوقفون في الحوار هنا، سيذهبون إلى بروفايلاتهم ويرسلون لك طلب إضافة، ثمّ يرجعون إلينا. كيف هي علاقتك بالإنترنت؟ هل تقرأ الصحف، مثلا، إنترنتياً أم ورقياً؟ هل هنالك مواقع معيّنة صارت زيارتها عادة يوميّة عندك؟

- أقرأ صحيفة واحدة ورقية، (مشترك فيها في الأردن)، أما بقية الصحف فأقرأ ما أريده منها على الإنترنت. أما المواقع فأزورها بين حين وآخر.

لكن مسألة الفيسبوك مسألة أخرى: فبعد أشهر من فتح حساب فيه، بضغط من أولادي، أحس كل مرة بأنني غريب في هذا البيت، وأحس بحرج كلما فتحته، ولذا قد لا يستمر الحساب طويلا. بخاصة أن الفيسبوك، وربما سواه، فيه الكثير من الوهم، وبخاصة وهم الصداقة، فقد يكون لدى شخص خمسة آلاف صديق مسجل، وهو يعيش وحيدا. إنه وهم امتلاء. أرجو بالطبع أن يكون الآخرون أكثر سعادة فيه، وأن تكون تجربتهم غير تجربتي.

لكن ما يحزنني في جيل الكتاب الشباب العرب أن كثيرين منهم يبدأون حياتهم بالتمرد كمشروع لهم، وليس بالكتابة المتمردة فعلا

مسألة الفيسبوك مسألة أخرى: فبعد أشهر من فتح حساب فيه، بضغط من أولادي، أحس كل مرة بأنني غريب في هذا البيت، وأحس بحرج كلما فتحته، ولذا قد لا يستمر الحساب طويلا

٢١. اسمح لي أن أتحرّش بـ (رمّان) وأسألك عنها كصحيفة ثقافية إنترنتيّة، وعن مجمل الصحف/ المواقع الثقافية التي تتوسّل الإنترنت لتصل إلى القراء، أين ترها في زحمة المؤسسات الضخمة للصحف الورقية، والتي، أيضاً، بات لها نسخها الإنترنتية؟ وهل ينطبق الأمر ذاته على الكتاب؟

- أحب (رمان) فهي أنيقة وغنية، ونادرة هي الصحف التي تجمع هذين الجانبين. بعض المواقع الثقافية مؤثرة، ومتابَعَة بشكل جيد، واستطاعت أن تكسر مافيات الصحف الورقية التي تعاني منها كثير من صحفنا، بسبب تحوّلها إلى ممالك للقائمين عليها وأصدقائهم.

في الإنترنت ديمقراطية مهمة وجرأة عالية على كسر الاحتكار.

٢٢. فلننتقل إلى أسئلة أقل وطأة ربّما.. هل تشاهد التلفزيون؟ وما البرامج التي تشدّك؟

- أشاهد التلفزيون قليلا، أحب قنوات الأفلام، ولكن في بعض الليالي أجد أن ستة أو سبعة أفلام معروضة، سبق لي وأن شاهدتها، لكن ما يستهويني كثيرا: الأفلام الوثائقية على ناشونال جيوغرافيك وسواها.

٢٣. بالنسبة للطبيخ، وهذا أمر يعزّ عليّ، ما الذي تحبّه من أكلاتنا الفلسطينية، وما هي المطاعم التي تفضّلها؟

- المقلوبة والمسخن والملوخية والقِدْرة، والزِّرب إن وجد. وأحب المطعم الصيني بشكل خاص، والإيطالي حين أكون في إيطاليا.

٢٤. كيف تقضي وقتك إن لم تكتب أو تقرأ أو تشاهد أفلاماً.. حين تقرّر أن ترتاح لساعة من كلّ ذلك، ماذا تفعل؟

- في أحيان كثيرة كنت أذهب لصيد سمك صغير لا يستحق عناء الرحلة في جدول صغير جنوب مدينة مادبا، وغير ذلك لقاءات الأصدقاء القريبين والسير في الشوارع، قيعان المدن والأسواق الشعبية، فأنا رجل مشّاء.

٢٥. ما المدن التي أحببتها؟ وما أكثر ما أحببت فيها؟

- أحببت فينيسيا وفلورانس ونابولي وجزيرة سردينيا، وأحب القاهرة جدا رغم أزماتها وأحب دمشق وعمّان. فتنتني القدس وبيت لحم كثيرا. ومؤخرا زرت مدينة (كارتخينا) في كولومبيا وكان لها وقع ساحر.

كل مدينة من هذه وسواها، لها سحرها، ولذلك كان لا بدّ من كتابة ذلك كله في كتابي (السيرة الطائرة) الذي يحكي قصة حياتي في السفر.

٢٦. الكثير من قرّائنا هم من الشباب، وأنت من الأسماء الأدبية التي نفتخر بفلسطينيتها، ما الذي تقوله لكتّاب شباب يمشون في الطريق الذي تنيره أنت وآخرين لهم، والذي شقّه لكم قبل ذلك غسان كنفاني واميل حبيبي وآخرين؟

- كل كلمة خطها كاتب قبلك هي خطوة كان عليك أن تخطوها أنت، ولكنه خطاها عنك، ومنحك تجربته مكثفة، ابدأ بمن سبقك، لا تتحدث عن الكتابة بل تكتب الكتابة التي تتحدث عنها كبديل مختلف أو كاستكمال لرحلة من سبقوك. وتذكر أن نصف كتاب العالم من حداثيين وسواهم، يتمنون أن يكونوا هم من كتب (دون كيخوته) أو (هاملت)، رغم مرور مئات السنوات على كتابتها.

كل كلمة خطها كاتب قبلك هي خطوة كان عليك أن تخطوها أنت، ولكنه خطاها عنك، ومنحك تجربته مكثفة

٢٧. سأعتذر لك عن أسئلتي الطويلة والمتعِبة، خاصة وأنك منشغل الآن في كتابة روايتك الجديدة. هل من كلمة أخيرة تود قولها لقرّاء (رمّان)؟

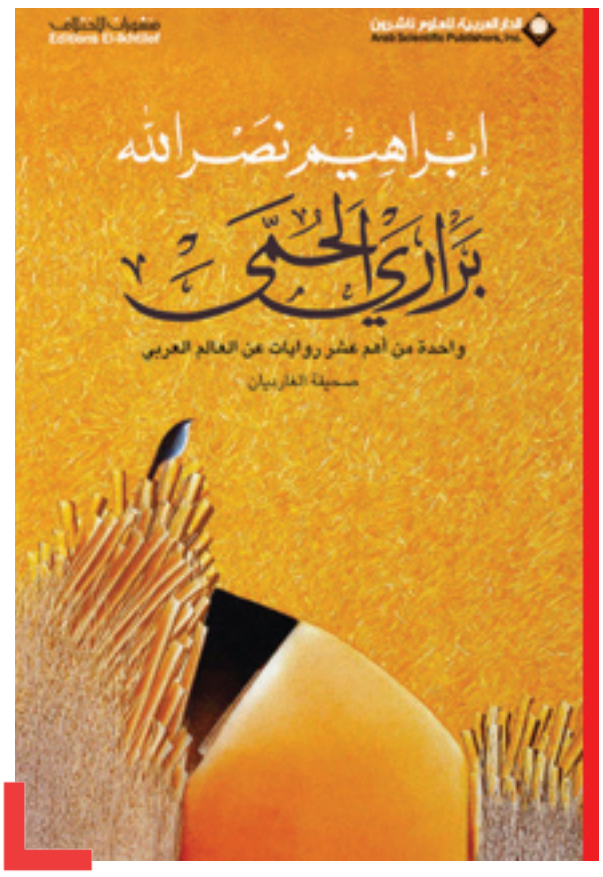

أحيي دائما قوة الحياة التي تعاكس كسلنا وعمانا ومواتنا، ولذلك كتبت في ديوان عواصف القلب:

لو أن الريح أتتْ تسألنا أن تتفجر أو تهدأْ
لو أن الأشجار على التلّ أتت تسألنا أن تخضَرّ
لو أن العصفور لكي يُنشد طالعنا يلتمس العُذْر
لانطفأ العالم وبقينا غرباء معا في هذا القبر!

صفحة نصرالله على الفيسبوك
facebook.com/inasrallah

عن حرب الناصرة-حيفا الثقافية

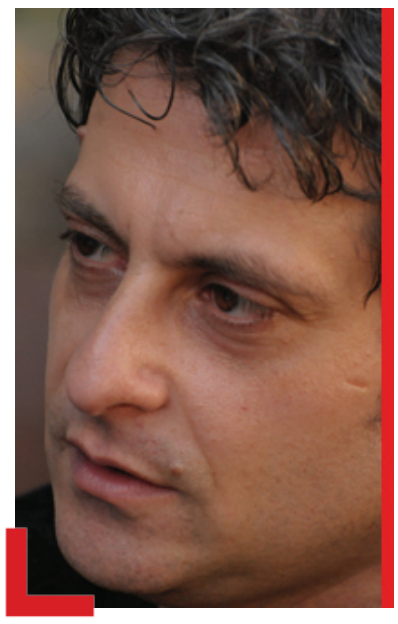

بصفتي نصراويا فخوراً!! كنت سأشعر بالحنق والإهانة عندما قرأت في إحدى الصحف المحلية أخيرا تصريحا لشاعرة فلسطينية هامة تقول فيه "حيفا ماضية في استبدال الناصرة من حيث الحراك الثقافي العربي".. ما علينا ..ولكنني لم أشعر بالغضب وقتها بقدر ما شعرت بالاستغراب من هذه القدرة على إطلاق تصريحات تمحي الآخر وتلتف عليه علانية وبشكل لا يتصف بأية حكمة أو حنكة و حتى بعدا أعمق من الكلمات المتراصة على التوالي، وأعود هنا إلى كلمة "استبدال" وهي من أخطر أسماء الأفعال بالعربية وهي تعني أن هنالك شيء في طريقه إلى الزوال أو الفناء وأن ثمة من سيحل مكانه وهذا يعبر تماما عن ثقافة الإقصاء وإلغاء ما لا نتفق معه أو ما لا يعجبنا ..ووفق طرح هذه الشاعرة فإن سكان مدينة الناصرة وضواحيها البالغ عددهم حوالي ٢٠٠ ألف نسمة سينتقلون الى مدينة حيفا البالغ عدد سكانها العرب ٣٠ الفا ليمارسوا الحراك الثقافي ..وهنا أعترف انه ليس أغبى من التصريح سوى التفسير نفسه...أو محاولة فهم حيثياته...

بدأ التنافس الثقافي بين المدينتين (ويا ريت كل الصراعات اللي عنا هيك)، ا بعد النكبة والغريب أن حرب التصريحات الصحفية وغيرها جاءت أكبر من الفعل الثقافي الفعلي نفسه ، ففي كل فرصة مواتية كان أحد الأشخاص يعلنها بشكل جارف أن هذه هي العاصمة الثقافية لعرب الداخل وتلك العاصمة الثقافية (عأساس القاهرة وبيروت يعني) وذلك بدون معطيات أو بحث معمق في دوافع إطلاق الألقاب لهذا الطرف أو ذاك..وكأن الفعل الثقافي يتدفق كالسيل من بين أصابعنا دون أن نستطيع فعل شيء...فلا يعقل أنه كلما صادف أسبوعا يقدم فيه عرضا جديدا لمسرحية إضافة الى معرض فني وكونسيرت موسيقي تتحول المدينة المضيفة الى "الحاضرة الثقافية" هذا عوضا عن مسح المدينة الأخرى عن الوجود الثقافي ...بفعل تصريحات ركيكة...وهنا أسأل ؟ لماذا لا يستثمر الأشخاص في إبداعاتهم الفنية، الأدبية والسينمائية بإتقان وحب وصدق ويتركون التقييم الجغرافي لمسكن المبدع ...للزمن!!! وسؤال آخر!!لماذا نتجاهل من قاموسنا مصطلح "التكامل" بمعنى أن يقوم كل مكان بما يتميز به بالفعل وليس بما يطمح اليه ولا يستطيع إليه سبيلا...فحيفا بحاجة للقاعدة السكانية العربية الأكبر كي تتحول الى المركز الثقافي وهذا ما تملكه الناصرة أما الأخيرة فتحتاج إلى ثورة اجتماعية حقيقية ونبش شبه عنيف في النسيج العمراني والسكاني والمؤسساتي كي تفض بكارتها المدينية وهذا ما تملكه حيفا الى حد ما (كبنيان على الأقل)، لا تستطيع حيفا أن تستبدل الناصرة في الحراك الثقافي كما إدعت الشاعرة، أولا، لأن الرصيد الأنساني العربي في حيفا هش جدا(للأسف) بفعل وحش المدينة اليهودية المحيطة والمتداخلة وثانيا لأن كل حراك ثقافي حقيقي وجارف بحاجة لخاصرة جماهيرية صلبة وكبيرة تتفاعل مع الفعل الثقافي وتغذيه وتتغذى منه وإلا تحول "الحراك الثقافي" الى "غيتو" وهذه بصراحة من سمات مجتمع الجمعيات الأهلية الحيفاوية مقابل النصراوية.

الامتحان هو ليس سرعة تتويج الأماكن دون فحوى حقيقية، بل بالمنافسة الإيجابية والإبداع الحقيقي والصادق والمختلف والثوري في مجالات الأدب، الموسيقى، المسرح، السينما، النحت، التشكيل وكل ما هو مهم..أو غير مهم أحيانا. وما إدغام حيفا داخل أسم الرابطة الجديدة للكتاب الفلسطينيين في الداخل دون مبرر (مع أنه تم تأسيس الرابطة في عكا) والتصريح بأن مقر التلفزيون العربي الجديد سيكون في حيفا (أذكركم ٣٠ ألف عربي مقابل ٢٠٠ الف) سوى عملية إقصاء والتفاف خبيثة وواضحة ومقصودة على الناصرة ودورها.

(ملاحظة: أأسف لمن يعيش عنوة خارج فلسطين على سخافتي/ نا هذه)

إبراهيم نصرالله : المشاغب البريء الذي نحب

"اذا ما الخيل ضيعها أناسٌ
حميناها فأشركتِ العيالا
نقاسمها المعيشة كل يومٍ
ونكسوها البراقع والجلالا"

(زمن الخيول البيضاء)

*رابعة حمّو

متفردٌ في ذاته، مجتمعٌ في مواهبه، نادرٌ في أصالته، متوقدٌ في عطائه، كذا هو الروائي ا لفلسطيني إبراهيم نصرالله الذي يعدّ حاله فريده بين المبدعين العرب المعاصرين في عالمنا الأدبي. فهو يجيد صنعة الشعر وما أملح شعره، ويتقن فن الروايه وما أغزر انتاجه، ويتحدث في السينما كناقد فني ومخرج سينمائي محترف وما أثقب عينه، ويشارك في التصوير ومعارضه التي تنوعت فيه رؤاه وتوزعت عليه درجات صوره في مخيلته الفنية التي رفدت عالمه الأدبي بمكونات هذه التقنية. تلك هي صفات الأديب الشامل، ويكفي أن نتعرف على جوائزه المتنوعة بين الشعر والرواية والسينما حتى ندرك أننا أمام حالة أدبية نادرة لا تتكرر كثيراً، حقّ علينا أن نوليها ما تستحق من الإهتمام والمعاينة والتفصيل، لا تنسلخ في موهبتها عن سيرة ومسيرة جيل المخضرمين من الأدباء الفلسطينيين ولكنها قَدِمت إليهم بدماء جديدةٍ لتضخها في شيرانهم الإبداعي نوعاً وكماً وكيفاً. هذه الموهبة التي لا تغنّي خارج سربها أتمت هجرتها وحطت رحالها بين أسماء أكبر روادها وألقت ما في جعبتها على أرض حلمها وفردوسها المفقود، التي عكف الادباء الفلسطينيين في تكوين معمارهم الروائي على تجسيده من أكبر تفاصيله إلى أدقه وأصغره. فكانت روايات شهيد الكلمة غسان كنفاني حافلة بمعاصر الألم ووجع الإغتراب وصوره المتنوعة لاظهار الهمّ الفلسطيني لمن هُجروا من الفردوس المفقدود. فكانت رواياته صوراً لعذاباتهم في دول الإغتراب وانعكاساً لما تسجله عينه في تسجيل واقع شعب تكالبت عليه قوى الاستعمارالعالمي وأصبح غائباً حاضراً يعيش هائماً على وجهه في بقاع الأرض الأربع. وحمل جبرا ابراهيم جبرا في رواياته ذات الجرح وذات الهم، وسطّر من معاناة شعبه صورة التصادم اليومي، ورسمّ وصوّر وأرّخ ملحمة العذاب الفلسطيني بكل ما فيها من مرارة وبؤس وشقاء، ليصير ابداعه الروائي أشبه بلوحة لضمير المثقف الفلسطيني، هذا الضمير الذي عكسه للعالم بكل ألمه وجراحاته، هزائمه وانتصاراته. في حين كتب صاحب المتشائل إميل حبيبي ملحمة النكبة الفلسطينية وقضية الشعب الفلسطيني المتجذر في وطنه وأسمعنا صوت الباقين الرابضين على صدورالاحتلال في الوطن بعد عام الرحيل الكبير في ١٩٤٨، في اسلوب روائي ساخر ممزوج بالكوميديا السوداء ليعليّ فيها صوت الباقين فوق ضجيج

غسان كنفاني

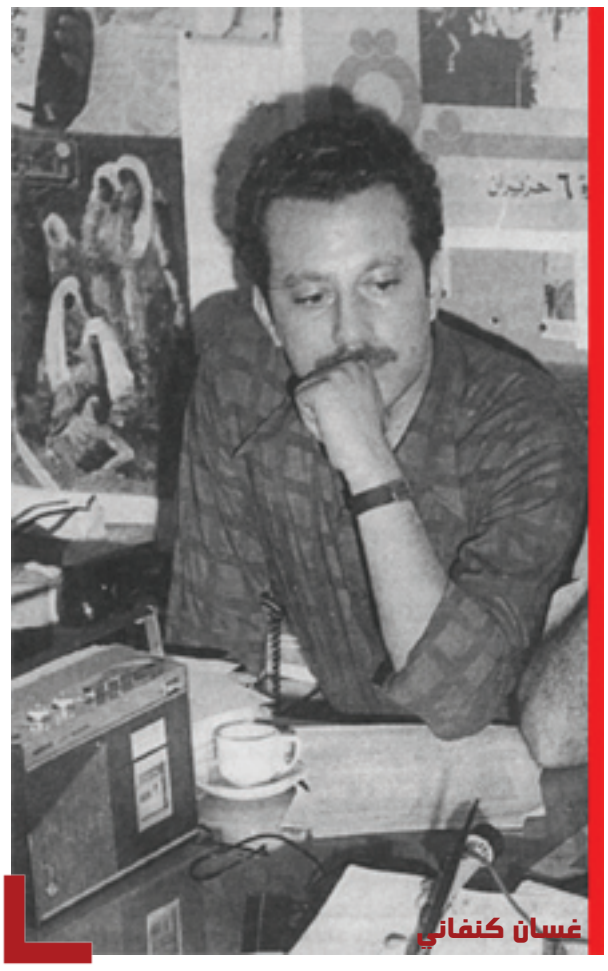

المحتل وزيف ادعائاته. وجاء ابراهيم نصرالله في ابداعه الادبي ليكشف لنا عن حالة فنية نادرة لأديب أقل ما يليق به أن نطلق عليه فذّ لتقدم لنا مشروعاً روائيا متميزاً يضيف لبنة جديدة على الرواية الفلسطينية ودماءا فتية لجهود الآباء المؤسسين، تحمل في جيناتها الروائية بصماتهم جميعهم ثم لتنفرد فيما بعد لتحمل أصالتها وصوتها المتفرد في براعة سردها وأناقة أسلوبها وتسلسل احداثها الروائية وزخم شخصياها التي تعج في صفحات رواياته وتتحرك بأريحة بين أروقتها. ولعلنا لا نخطئ إن قلنا أن حسّ ابراهيم نصرالله الروائي وذائقته الأدبية وذوقه الفني جاء مكملا في سيرورته وترددات أحدثه مسيرة الروائي غسان كنفاني ومشروعه الفني بعد أن خطفته أيد المنية في ريعان شبابه ولم يتح له القدر أن يتمم هذا المشروع، وكأن نصرالله قد احتضن في لاوعيه عالم غسان كنفاني الروائي وأدرك بحسه الأدبي أن هذا المشروع العظيم لم ينجز وهمّ بإكماله، في أسلوب روائي ملفتٍ وسرد أخاذ. ومن ذا يستطيع الإقتراب من عالم شهيد الكلمة إن لم يكن يجاريه في الموهبه الفنية والبراعة؟ ومن ذا يأخذ بتلابيب هذا المشروع إن لم يكن كاتب ذو أصالة كابراهيم نصر الله؟ ولعل مشروع "الملهاة الفلسطنية" العلامة الفارقة في المعمار الروائي لنصر الله التي شرع في خط لبناته الأولى منذ العام ١٩٩٦ برواية "طيور الحذر" ثم اتبعها برواية "طفل الممحاة" لتلحقها رواية "زيتون الشوارع" ثم "أعراس آمنه" و"تحت شمس الضحى"، وأخيرها وليس أخرها "زمن الخيول البيضاء". وقد عكف الكاتب على تنبيهنا في نهاية كل روايه من هذه الروايات أن يثّبت لنا تعريف معنى كلمه "الملهاة" وكأن الكلمة غُرزت في أرض الرواية كإشارة تنبيه للقارئ على ما سيقع في يديه، وما ستراه عيناه وما ستقرأه شفاه. هذه المفردة بحد ذاتها تثير فينا الدهشة والغرابة. فهي جاءت موازية لمكانة المأساة التي ما

> **حسّ ابراهيم نصرالله الروائي وذائقته الأدبية وذوقه الفني جاء مكملاً في سيرورته وترددات أحدثه مسيرة الروائي غسان كنفاني ومشروعه الفني**

إميل حبيبي

انفك جميع أدباء وشعراء فلسطين في ترسيخها في أدبهم وأشعارهم، فجاءت "ملهاة" نصرالله لتمم لنا مأساة فلسطين في تراجيديتها ولتسيرجنباً إلى جنب مع مأساتها. وكأن استبدال كلمة "المأساه" و"التراجيديا" التي تواضع عليها الأدب العالمي لرسم الهزيمة الحتمية لأبطالها، وقفل باب النجاة أو أي احتمال للنصر بكلمة" ملهاة" المناقضة لها والمنتمة لعالمها منحت هذا الروائي الكبير التحكم بمصائر شخصوصه وتعددها وفتحت باب الصراع على دفتيه، وأتاحت له التعامل مع القضية الفلسطينة بطريقه مغايرة لا تتشابه في نسيجها مع روايات الأدباء الفلسطينين الآخرين والتي كانت محور رواياتهم تتحدث عن القضية الفلسطينية وتركز في قالبها الروائي على الهم الأكبر وهو هم القضية على حساب أبطالها وشخوصها. أما في سلسلة روايات الملهاه ا لفلسطينية فقد وقف نصرالله على الكثير من التفاصيل الدقيقة لأبطال الرواية وتعامل مع هؤلاء الشخصيات على أنها شخصيات لها همومها اليومية التى تؤرقها وتشغل تفكيرها وتتصارع فيما بينها كما تتصارع مصائر الناس على أرض الواقع.

ولا يسعنا في هذه العجالة أن نقف على أدق تفاصيل سلسلة الملهاة الفلسطينية لنصرالله ولكننا سنقف على أعتاب هذا العالم ونلقي نظرة بانورامية عليه، علّها تكشف مستور واقعها. ونبدأ مع أولى روايات الملهاة "طيور الحذر" التي يرصد فيها نصرالله فكرة الشتات الفلسطيني وقصة المعاناة في مخيمات اللاجئين ونكبة عام ١٩٦٧، فيتحدث فيها عن علاقة الطفل الفلسطيني مع أمه منذ أن كان جنيناً في بطنها وكأن نصر الله أراد يثبّت في أذهاننا صورة للعلاقة المميزة التي تربط الأم الفلسطينية مدرسة النضال الأولى ومعلمتها مع طفلها منذ أن كان جنيناً في بطنها، فتفتتح الرواية أبوابها على صوت هذا الطفل الذي يسرد علينا قصته ومشاعره منذ خروجه من رحم أمه إلى هذا فضاء هذا العالم الفسيح، وتتصاعد وتيرة مشاهدها ووتطورأحداثها

> **وقف نصرالله على الكثير من التفاصيل الدقيقة لأبطال الرواية وتعامل مع هؤلاء الشخصيات على أنها شخصيات لها همومها اليومية التى تؤرقها وتشغل تفكيرها وتتصارع فيما**

في سرد روائي آخاذ لتصل في ذروتها الى ثورة هذا الطفل على الصمت والخوف والرغبة الجامحة بتغير هذا الواقع الترهيب الذي فرضته الظروف عليه وذلك بقراره أن يحطيم جدران بيته، جدران الخوف والصمت حتى يقطع آذان هذه الجدران التي كانت تسترق السمع على أمنياته وأحلامه ليعلن بذلك تمرده وعصيانه على الخوف بعد أن أعلن أن الجدران الآن أصبحا بلا آذان. أما في الروايه الثانية من ملهاة نصر الله فهي "طفل الممحاه". التي قسمها الكاتب إلى عدة دروسٍ تستوقف من عناوينها القارئ طويلاً على معاني ودلالات هذه الدروس المنسقة كالتالي: "درس الزغب..درس التعب" ثم "درس الحسب من غير نسب"، وأيضا "درس الرسائل والهوى درس الرتب"، و"درس الغضب" وأخيرا "درس العجايب والعجب". وتتعرض هذه الدروس في مجملها التطور الذى سيمر بأحد الجنود الذين شاركوا في حرب فلسطين ٤٨ بداية من بيئته المحلية البسيطة مرورا بقصرالمللك الذى سيعمل عنده لفترة إنتهاء بدوره في حرب ٤٨ . أما الرواية الثالثه وهي "زيتون الشوارع" ينتقل بنا نصرالله إلى معاناه المرأة الفلسطينية من خلال روايه تعج بالأبطال النساء. لتصف في سردها سباب ضياع فلسطين من خلال غياب العلاقه الواضحهه بين "القائد" و"المقود" وما يلفت النظر ما تفتح به هذه الرواية في أولى أسطرها جملة أشبه ما تكون حكمة نستشرف منها سير أحداث هذه الرواية التي يقول فيها الكاتب:المكان الضيق لا جدران له
المكان الضيق ليس فيه إلاّ الزوايا..
أما الرواية الرابعة وقبل الأخيرة في السلسلة فكانت كتاب يحوي روايتين اثنتين هما "أعراس آمنة" و"تحت شمس الضحى" تسردان واقع القضية الفلسطينيه في آخر مجرياتها وما يدور في مدينتي غزة ورام الله من انقسام للواقع الفلسطيني وتجسد فكرة الانبعاث الفلسطيني المتجدد على هذه الارض في فكرتي الموت والشهاده، التضحية والفداء المستمر لدماء الشهداء الذي حمّم أرض ألأجداد. وآخر هذه السلسلة رواية "زمن الخيول

البيضاء"، التي يثير عنوانها القارئ في مفتاح دلالي يغريه بالبحث عن هوية هذه الخيول، وعن الزمن الذي كانت فيه الخيول بيضاء، عبر صفحاتها الخمسمائة التي تعدى بها العمل أن يكون عملا أدبيا روائيا تقليديا يحاول أن يقترب من القضية الفلسطينية إلى كونه رواية ملحمية، تؤسس لحكاية فلسطينية طويله وعامرة بالحياة والإنسانية وسرد قصص الصمود والهزائم، ولعل أهم ما أسست له هذه الرواية هو أنها انطلقت من النقطة التي بدأ عندها إميل حبيبي في نسج عالمه الروائي وهو صراع من بقي من الشعب الفلسطيني على أرضه بعد نكبة عام ١٩٤٨، لتسير بنا في اتجاه معاكس بالزمن، في أسلوب الفلاش باك إلى أحداث ما قبل النكبة عبر سرد روائي شاعري متدفق للصورة التي كانت عليها فلسطين قبل الاحتلال وهي فترة قلما تناولها كتاب فلسطين وروائيوها بشكل مفصل كابراهيم نصر الله في روايته هذه، وبهذا تكون هذه الرواية قد سدت الفراغ في الذاكرة الفلسطينية الروائية باستحضار الوطن قبل عام النكبة، وأتمت رواية التغريبة الفلسطينية بكل محطاتها، ووقفت عند كل أحداثها الزمنية. وما يلفت النظر في هذه الرواية بدايتها التي يفتتح بها نصرالله عالمه الروائي، محيلا فيها قارئه على قول عربي مأثور: "لقد خلق الله الحصان من الريح، والإنسان من التراب"، ثم أضاف عليه: البيوت من البشر، وهو في ذلك يمسك بيد قارئه ويضعه على أولى عتبات روايته في نسج علاقة ثلاثية بين الحصان والانسان والبيوت، التي تتقاسمت فيما بينها صفحات الرواية من خلال كتب ثلاثة حملت طابع هذه العلاقة فكان الكتاب الأول: كتاب الريح، والثاني: كتاب التراب، والثالث: كتاب البشر. ومن هذه الأبواب يسرد نصر الله حكاية فلسطين منتقلا فيها من باب إلى باب ومن حالة إلى حالة، ومن زمن إلى زمن، فتتلاحق الأحداث وتتصاعد وتيرة العمل ليصل في ذروته إلى عام النكبة وضياع فلسطين. وما يلفت النظر في جميع فصول وجميع أجزاء سلسلة الملهاة الفلسطينية أن الفضاء الروائي لم يقتصرعلى مكان واحد بل تنوع في فضائه المكاني في أكثر من مكان، فتدورالاحداث في المخيمات الفلسطينية لتعكس لنا حجم المأساة لهذه المخيمات ولتجذر بالوقت ذاته أن المخيم أصبح جزءا لا يتجزأ من المكان الفلسطيني ولتسلط الضوء على شظف العيش وصعوبة الحياة في هذا المكان المؤقت- الدائم في فكر وثقافة الإنسان الفلسطيني. كما نجد أيضا أن الفضاء المكاني يدور في بعض البلدان العربية، وآخرها في مدينتي غزة ورام الله، لكأن نصرالله أراد أن يجسد أحداث رواياته وتنوعها على تأكيد حالة الشتات الفلسطيني في أماكن الغربة واللجوء من جانب ومن جانب آخر أن الوطن أيضاً يعيش الاقتلاع والسلب والضياع والتمزق بين طرفي صراع الأخوة. كما تناولت ملهاته شخصيات متنوعه من أطفال، وشباب، ونساء، وشيوخ، وطبقات ثقافية متصارعة عمال، موظفين، فقراء، وأغنياء. وتناولت أحداثها مفاصل هامة من تاريخ القضية الفلسطينية كثورة ١٩٣٦-١٩٣٩، مروروا بنكبة عام ٤٨، إلى حرب٦٧، ثم التبشير بالانتفاضة الاولى عام ٨٧ ثم إنتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠ وأخيرا حالة الانقسام الاخير بين مدينتي رام الله وغزة. وبهذا تكون هذه الملهاة ملحمة فلسطينية بدأت بسبر أغوار الزمن على مدار١٢٥ عاماً منذ بداية الصراع وحتى زمننا الحالي أتت على أغلب أحداث فلسطين وتفاصيلها وأثرها على فئات المجتمع المختلفة في إطار فني عالي هارب من قولبة الحدث التاريخي وسرده بصورة فجة وتقديمه للقارئ بأسلوب جديد يلقي الضوء على هذه المفاصل من عمر القضية الفلسطنية. وبذلك يكون ابراهيم نصرالله قد أتم ما بدأه غسان كنفاني في سعيه لتجسيد أثر كبرى ثورات فلسطين عام ١٩٣٦ على مسار أحداث فلسطين واتمام سيرورة الزمن حتى عصرنا الحالي وما تنازع هذه القضية من شد وجذب أثّر على تاريخها وبعدها السياسي الذي انعكس بطبيعة الحال على مواقف شخصياته الروائية.

لكأن نصرالله أراد أن يجسد أحداث رواياته وتنوعها على تأكيد حالة الشتات الفلسطيني في أماكن الغربة واللجوء، من جانب ومن جانب آخر أن الوطن أيضاً يعيش الاقتلاع والسلب والضياع والتمزق بين طرفي صراع الأخوة

أسلوبه

طبع نصرالله كتاباته الروائية بنكهة خاصة ميزته عن أي روائي آخر. ولعل أول هذه السمات أنها لا تقدم الحكاية إلى قارئها على طبق من ذهب بل تدفعه للمشاركه في تأويل وفهم أحداثها. بأن ترسم صورة ناقصة تدفع القارئ لتخيل هذا النقص حتى يتسنى له فهم تتابع سرد هذه الرواية، وهذا الاسلوب السردي جعل القارئ يُقبل على قراءة الرواية بشغف من أولها إلى آخرها حتى يتمكن من فهم أحداثها وقفلتها الدرامية. وتدفعه أيضا لقراءة الروايه أكثر من مرة حتى يستطيع فهم احداثها وربطها ببعضها البعض لتتضح له صورة العمل أكثر فأكثر، فيكون نصرالله قد أدخل عنصر التشويق الذي يشعر به كل من يقرأ عالمه الروائي، الذي يتلهف قارئه لقراءة أي عمل يخصه. أما ثاني سمات كتابات نصرالله الروائية أنها تأخذ طابع الحس الشعري، فهي جميله في طرحها، أنيقة في مفرداتها، موسيقية في حواراتها وكأنها أعمال وضعت أصلا في الشعر أو أعمال روائية ضاق عليها الشعر فقفزت بأريحية إلى عالم الرواية. ولعلنا في كثير من الأحيان نشعر أن حورات شخوصها وأبطالها مكتوبة بلغة الشعر أو كأنهم شخوص قدموا من عالم الشعر. ويرجع هذا التلاحم بين عالم الشعر وعالم الرواية أن نصرالله قدم من جمهورية الشعر وحصد العديد من الجوائز في هذا المجال ثم إنتقل إلى عالم الرواية وهذه موهبة قلما أتقنها كاتب في حمل بطيختن بيده والسير بخطى واثقة مع الإثنتين دون أن يقع في شرك المفاضلة بين أحدها على الأخرى، بل ألغى الفوارق بين الموهبتين ووظف كلتيهما في عالمه الشعري وعالمه الروائي، فأدهش كروائي وأبدع كشاعر، فاستحق بجدارة ثقة قرائه ومحبتهم لأعماله الشعرية والروائية. أما ثالث مميزات نصر الله فهو التجديد في الاسلوب الذي يبني به الكاتب عالمه الروائي. حيث عمد إلى التنويع في السرد والحكي وترتيب الأحداث. فمثلا انفتح نصه في رواية "براري الحمى" على الصحراء، كمكان بكر، وعلى حركة الداخل الذي يوازي المحيط العام للرواية فكان لزاما عليه إيجاد لغة خاصة تقترب من الشعر، ولهذا نلمح الشعرية الطاغية في هذه الرواية لتتناسب مع مكانها وبيئتها. أما في روايته (عَوْ) فقد تغيرت اللغة، فأصبحت أكثر تقشفا في صورها الشعرية من ذي قبلها، ذلك لان جميع أحداثها تدور في المدينة ولعل الاصطدام مع عمران المدينة يولد الكابوس، عكس الاصطدام مع الطبيعة الأولى الذي يولّد الأسطورة والخيال هو حصان الشعر. وبين لغة الكابوس ولغة الأسطورة تكون هي ذات المسافة بين لغة النثر ولغة الشعر. أما في رواية "طيور الحذر" كان يمكن أن يكون العمل فنتازيًّا لو استخدمت اللغة نفسها التي استخدمت في "براري الحمى"، فالبطل هنا طفل، ولذا لا بدّ من ايجاد صغية تناسب مع مكونات لغة الطفل تكون قادرة على التعبير عن صدقه وبرائته. أما حضور تيار الوعي في رواية "مجرد ٢ فقط" بهذه الكثافة فقد كان جزءاً من مواجهة خطر الإبادة، ولذلك عمد نصرالله إلى تكثيف الأزمنة كي يشكل زمنه النفسي القادر من خلاله مواجهة خطر الإبادة في زمنه الحالي. فهو يستعيد تواريخه الماضيه كلّها بافراحها واحزانها وعذاباتها، وكأنه "يتجمهر" أمام عدوه كي لا يبقى وحيدا أو أعزلا أو ضحية سهلة أمام المذبحة. وفي "حارس المدينة الضائعة" نقف مع شخصية مستلبة لذلك لا يحضر الماضي إلا مجزئاً كقطع من الفسيفساء، لأن مأساة هذا البطل تكمن في رؤيته للجزئيات، دون أن يستطيع أن يشكل منها وحدة واحدة منصهرة ككل وعالم موحد. أما في "طفل الممحاة" استخدمت الكاتب اسلوب السيرة الذاتية، لأنها بنية مستطردة تتيح لكاتبها التقدم والتأخر، تكتب من ناحية لحدث وتمحي من ناحية اخرى حدث آخر. ولذلك ليعبر عن واقع ما في حياته حدث سابقا ولا يعود إليها بعد ذلك أبدا، كما لو أنه يكتبها ويمحوها في آن، فهو أشبه بحافلة تسير في خط مستقيم، تتوقف عند كل محطة تصادفها، لكنها لا تعود لأي من هذه المحطات من جديد. وإذا كان هذا الشكل مناسبا للسِّير الذاتية، فإنه بالوقت ذاته أفقر شكل فني يمكن أن يوجد، حتى يتلاءم مع شخصية "العريف فؤاد" التي تتشابه بهذا الفقر، لذا جاءت بنية السيرة الذاتية الأكثر قدرة لا للتعبير عن حياته التي لا يدركها وحسب، بل للتعبير عن جوهره ككائن ممحو تماما. وأخيرا رواية "زمن الخيول البيضاء" التي عمد فيها نصر الله إلى اعتماد الاسلوب التوثيقي من خلال شخوص روايته وسرد سيرة أبطاله وقصصهم وكأنه بالوقت ذاته يوثق لتاريخ لفلسطين وسيرتها قبل النكبة، ولعل هذه الخاصية هي التي دفعت المخرجين الدرامين للتحمس لانتاجها كمسلسل درامي تلفزيوني يوثق فلسطين وشعبها لما قبل النكبة. وقد قدم نصر الله مشروعا جديدا بدأه منذ عامين تقريبا وهو ما يندرج تحت مسمى "أدب اللامعقول" بدأها بروايه "شرفه الهذيان" التي تقوم أحداثها على أسلوب جديد يختلف عن ما سبقه من روايات يعتمد فيها الكاتب اسلوب الانقطاع والتواصل فلا تتابع في سيرورة الأحداث او تعالق في الحوار. تتناول أحداث هذه الرواية ما يدور من الساحة العالمية بعد أحداث سبتمبر، ولعل نصرالله اختار هذا النوع من الكتابه بطريقة أدب اللامعقول واستخدم هذه التقنية في الكتابه لتتناسب لا معقول عالمنا الحالي فنرى روايته مليئة بالصور واللوحات الفنية والإحالات إلى مشاهد معينة في أفلام عالمية مشهورة وصور حقيقية هى جزء من صلب الروايه مثل صور تفجير برجى نيويورك وصورة إستشهاد محمد الدرة في حضن أبيه.

وبعد،

وقفنا على بعض روايات ابراهيم نصرالله، ولم يسعنا ضيق صفحاتنا أن نقف على عالمه الشعري الذي يحتاج إلى وقفة متأنية وطويله، ولكننا نستذكر وإياه ذكرى من رحلوا وتركوا ورائهم سيرهم العطرة ودروس النضال للأجيال القادمة لتعي وتتذكر وتعمل، ونستحضر معه ذكرى «جورج حبش» ذاك الحصان الأصيل في قصيدة «الحكيم» من ديوانه « لو أني كنت مايسترو» بمناسبة ذكرى وفاته التي سيطل رأسها علينا في ٢٦ من هذا الشهر، والتي يقول فيها نصر الله:

تتعدَّدُ في كلِّ شيء
وتَسكُن في أرض قلبكَ بحراً ونهراً
ومعنىً لهذا الجَمالِ الذي يجعلُ الورْدَ أطيبْ
تتعدَّدُ في سُحُب ودروب
وفي شِجر لِلقصائدِ أقربْ
ولم تكُ نجماً على مسرح الوقتِ
أو مطراً عابراً في الكلام
ولا خطوةً تستدرُّ الحقيقَةَ في شبه حُلْم
ولا وطناً عالِقاً في الغَمام
ولا نصفَ اسم لهذا الحَمامِ الأليفِ المهذَّب
قالوا لنا الماءُ في النَّهر عَذْبٌ
فقلتَ لنا الماءُ في البحر أعذَبْ!!
*****
على حافةِ الحُلْم تجلسُ أرضٌ
على حافّة الوقتِ
لا في البحارِ البعيدةِ بحرٌ
ولا في الحديقة وردٌ
على حافّة الصَّمتِ مذبحةٌ تتهادى
وفي خطواتِ الصَّباح على العشبِ منفىً يسيل
وفي الحلْقِ رملٌ، خيام،
وأكثرُ من وجْهة أغلِقتْ بالدِّماءْ
وفي الكلمات القليلةِ ما في فمِ الضِّوء: ماء!
فضاءٌ غريبٌ يُحلِّقُ فوق الرؤوسِ
على جسد مُتْرَع بالرَّصاص
نهارٌ يجفُّ عِلى خِنجر وهوَاء مقيَّدْ
قالوا لنا تلك شمسٌ تموتُ
فقلتَ لنا بل توارتْ لتُولَدْ
****
المنازلُ بيضاءُ
فوقَ التلالِ البعيدةِ
والضُّوء يمشي كطفل على حافّة السُّورِ
خلْفَ المنازلِ أشجارُ حَوْر
ورفُّ طيور على موعد مع فتاة جَليْليَّة
وجهُها فرحٌ كاسمِها
وعلى بعد حقلين
ثمة مَرْجٌ فسيحٌ يُرى راكضاً مع خيول أثيريَّة طائرةْ
قالوا لنا ذاك محضُ سراب
فقلتَ لنا بل بلادٌ على حُلْمها ساهِرَةْ
******
قربَ بابِ العمودْ
هنالك في القدْس نصفُ سماء مُعَلَّقة بأصابعَ فلّاحة
عَبَرتْ نصفَ جيش
وأسبوعَ موْت
وخمسَ جهاتْ
لتؤدِّي الصَّلاةْ
قربَ بابِ العمود تحدِّق في الظلِّ يمشي بطيئاً على خوذةِ العسكريِّ
على فَوْهَةِ البندقيِّ
فالوقتُ لما يَحِنْ، بعدُ، كي تلتقي الله، قالَ الطُّغاةْ!!
السُّماء الصغيرةُ ترتاحُ نصفَ نهار على وجعِ العتباتْ
هذه الأرضُ، قالوا لنا: حقلُ موت
فقلتَ: حياةْ
***
لأُرتِّبَ اسمَكَ في مقطعين وبعضِ حروف
سأحتاجُ خمسين عاماً وستَّ حروب
وألفَ بدايةْ
لم نكن زبَداً قربَ شاطئ بحر
ولا مقطعَاً زائداً في روايةْ
ولا كوكباً عالقاً بغريب أضاعَ الطريقَ إلى روحهِ
وهو يبحثُ عن أُفْقِهِ في النَّديم!
ولا محضَ ريش على سفحِ ذاكرة مُرَّة
جرَّحَ القلبَ فيها هبوبُ النّسيم!!
ولا قمراً في مهبِّ الغوايةْ
قالوا لنا هذه الريحُ سَدٌّ
فقلت لنا هذه الرِّيحُ رايةْ
تتعدَّدُ في كلِّ شيء
وتَسكُن في أرض قلبكَ بحراً ونهراً
ومعنىً لهذا الجَمالِ الذي يجعلُ الوردَ أطيبْ
فلم تكُ نجماً على مسرح الوقتِ
أو مطراً عابراً في الكلام
ولا نصفَ اسم لهذا الحَمَامِ الأليفِ المهذَّب
قالوا لنا الماءُ في النهر عَذْبٌ
فقلتَ لنا الماءُ في البحر أعذَبْ!!

*باحثة في الادب العربي الحديث
جامعة السوربون - باريس

إميل تـوما: ريادةٌ في السياسة وفي النقد

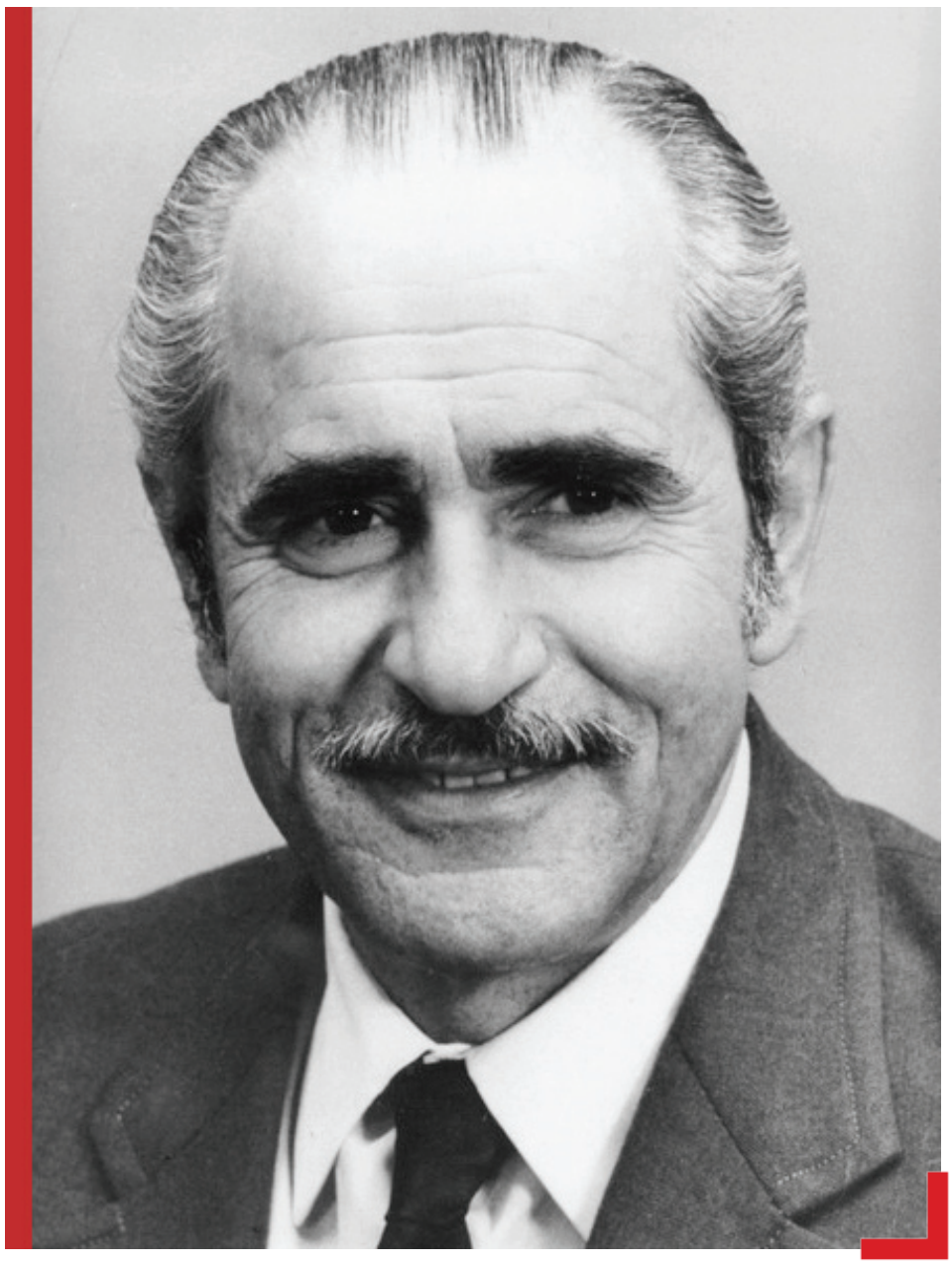

ولد إميل توما في ١٩١٩/٣/١٦ لعائلة فلسطينية ميسورة في مدينة حيفا وتوفي في ١٩٨٥/٨/٢٧ في المستشفى المركزي في العاصمة الهنغارية بودابست بسبب مرض عضال ألم به، وقد نقل جثمانه إلى حيفا مسقط رأسه ودفن فيها. والده جبرائيل حنا توما ووالدته ماري حبيب خوري. زوجته حايا توما وهي فنانة وناشطة في السلام والديمقراطية، توفيت في ٢٠٠٩/٦/١٥ عن عمر ناهز ٧٨ عاما ودفنت في مقبرة الروم الأرثوذكس في كفار سمير بمدينة حيفا، إلى جانب زوجها ورفيق دربها.

د. محمد خليل

تلقى إميل توما تعليمه الابتدائي في مدرسة الطائفة الأرثوذكسية في حيفا، انتقل بعدها إلى مدينة القدس لتلقي تعليمه الثانوي في مدرسة "المطران جوبات" التبشيرية الإنجليزية الداخلية، التي كانت تعرف، وقتذاك، بكلية صهيون نظرا لوقوعها على جبل صهيون. لكنه توقف عن الدراسة ولم يتسن له إتمام تعليمه الثانوي مع اندلاع الثورة في فلسطين عام ١٩٣٦. تأثر إميل توما بالمد الثوري للحركة الوطنية الفلسطينية، وبمعلم اللغة العربية في تلك المدرسة؛ الأديب التقدمي والماركسي اللبناني رئيف خوري الذي يعد زارع بذرة الاشتراكية والشيوعية في فلسطين آنذاك وزميله الصحافي الشيوعي عبد الله بندك. في عام ١٩٣٧ سافر توما إلى بريطانيا سعيا في طلب العلم، حيث التحق بكلية الحقوق في جامعة "كمبريدج"، لكن دراسته توقفت، مرة أخرى، في عام ١٩٣٩ بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية. يقول صديقه ورفيق دربه زاهي كركبي "قال لي مرة: كما تعلم درست في مدرسة صهيون وفي جامعة كمبريدج، ولكني لا احمل أية شهادة. فدراستي في صهيون توقفت بسبب الثورة، وفي كمبريدج توقفت دراستي بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية"!

في أواسط عام ١٩٦٥ التحق بمعهد الاستشراق في موسكو للدراسات العليا، حيث نال عام ١٩٦٨ شهادة الدكتوراة من قسم التاريخ في المعهد تقديرا لرسالته "مسيرة الشعوب العربية ومشاكل الوحدة العربية".

مع نهاية عام ١٩٣٩ انضم إميل توما إلى صفوف الحزب الشيوعي الفلسطيني السري حيث قام بالاشتراك مع رفيقي دربه؛ توفيق طوبي وبولس فرح بتأسيس نادي "شعاع الأمل" في حيفا، الذي ما لبث أن تحول إلى مقر لعمال شركات الزيوت وعمال المعسكرات في المدينة. كما ساهم إميل توما في تأسيس "اتحاد نقابات وجمعيات العمال العرب" الذي أصبح لاحقا النواة لتأسيس "مؤتمر العمال العرب".

في خطوة رائدة، وبفضل جهود إميل توما ومشاركة رفيقي دربه توفيق طوبي وإميل حبيبي وآخرين، أصدر "اتحاد نقابات وجمعيات العمال العرب" العدد الأول من جريدة "الإتحاد" الأسبوعية، حينذاك، في ١٤ أيار ١٩٤٤، حيث كان إميل توما صاحبها الرسمي ومحررها المسئول، ومنذ العام ١٩٤٩ بدأ يعمل في هيئة تحرير الجريدة. فيما بعد أصبحت "الإتحاد" جريدة يومية ما زالت تصدر إلى اليوم في مدينة حيفا. كما ساهم توما عام ١٩٤٣ مع عدد من رفاقه ومن بينهم توفيق طوبي وإميل حبيبي أيضا في تأسيس "عصبة التحرر الوطني" حيث تم انتخابه أمينا عاما للعصبة. في ٦ تموز ١٩٤٧ عقد إميل توما مؤتمرا صحافيا في القدس تحدث فيه عن ظروف نشأة عصبة التحرر الوطني في المجتمع العربي، كما عرض البرنامج السياسي والبرنامج الاجتماعي الاقتصادي لعصبة التحرر وسياستها الخارجية، ودورها في المجتمع. ومن مواقفه الوطنية رفضه مشروع إقامة "الدولة اليهودية" في فلسطين بوصفه مشروعا إمبرياليا سعى إليه الاستعمار "الأنجلو – أمريكي" لضرب حركة التحرر العربية في المنطقة، فيما بعد عرف البيان الذي أعلنه إميل توما في مؤتمره الصحفي بـ "وثيقة إميل توما". وقد عُرف عن إميل توما أنه كان من بين المعارضين لقرار تقسيم فلسطين رقم ١٨١ الصادر في ١٩٤٧/١١/٢٩ عن الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة. مع وقوع النكبة عام ١٩٤٨، غادر إميل توما فلسطين مع من غادر من أبناء شعبه اللاجئين إلى لبنان حيث سجن هناك في معسكر للاعتقال بمدينة بعلبك مدة ثلاثة أشهر مع عدد من أصدقائه الوطنيين التقدميين مثل: الشاعر عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)، والمحامي حنا نقارة، وذلك بسبب نشاطهم بين الجماهير الفلسطينية اللاجئة في لبنان، من أجل عودتها إلى أرض الوطن، عاد بعدها إلى حيفا مسقط رأسه. وكان من الطبيعي أن ينخرط في صفوف الحزب الشيوعي الإسرائيلي، الذي التأم في مؤتمر الوحدة في تشرين الأول عام ١٩٤٨. لكنه لم يُقدَّم لمدة طويلة في صفوف الحزب (حتى انقسام ١٩٦٥) بسبب موقفه المعارض لقرار التقسيم، كما يبدو. وعن بعض ما حدث في ذلك المؤتمر يقول صديقه ورفيق دربه زاهي كركبي: "وطُلب من إميل أن يقدم انتقادا ذاتيا لمعارضته قرار التقسيم، ومع أنه قدم الانتقاد الذاتي المطلوب إلا أنه حُرم من أن يكون عضوا في قيادة الحزب. واستمر هذا المنع حتى عام ١٩٦٥ أي ١٥ عاما. ولم ينتخب إميل للجنة المركزية للحزب إلا بعد الانقسام عام ١٩٦٥. لقد كان قرار إبعاد إميل عن القيادة هذه السنوات الطويلة، في رأيي، قرارا ظالما غير واقعي"! في العام ١٩٨١ بدأ إميل توما التحضير لعقد المؤتمر القطري الأول للجماهير العربية الفلسطينية في الداخل، الذي كان من المقرر عقده في مدينة الناصرة، لكن المؤتمر لم يعقد بسبب قرار رئيس الحكومة الإسرائيلية التعسفي، آنذاك، مناحيم بيغن، استخدام أنظمة الطوارئ وإصداره مرسوما يمنع بموجبه عقد المؤتمر ويعلنه، مع جميع مواده السياسية والتنظيمية، خارج القانون.

مثّل إميل توما الحزب الشيوعي الإسرائيلي في عدد من مؤتمرات الأحزاب الشيوعية والعلمية والسياسية في العالم. يعد إميل توما مفكرا أيديولوجيا ومؤرخا وسياسيا من الدرجة الأولى. ساهم إميل توما كمفكر ومؤرخ وكاتب سياسي في قيادة الحزب الشيوعي الإسرائيلي، والجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة، وفي لجنة الدفاع عن الأرض، كذلك في الدفاع عن الجماهير العربية المتبقية في الوطن، وفي الحفاظ على هويتها الفلسطينية والتمسك بها، من خلال عمله في صحيفة "الاتحاد" ومجلة "الجديد". كما دافع عن الثقافة العربية في مرحلة حاول فيها الاحتلال الإسرائيلي طمس الهوية والثقافة العربية ونشر العدمية القومية.

وقد حفرت على ضريحه الكلمات الآتية "لقد أحببت شعبي حباً ملك عليّ مشاعري وآمنت بأخوّة الشعوب إيمانا عميقا لا تحفّظ فيه"! يمكن القول إن إميل توما قد جعل جل مؤلفاته وكتاباته في خدمة القضايا العربية وعلى رأسها القضية

مع وقوع النكبة عام ١٩٤٨، غادر إميل توما فلسطين مع من غادر من أبناء شعبه اللاجئين إلى لبنان حيث سجن هناك في معسكر للاعتقال بمدينة بعلبك مدة ثلاثة أشهر مع عدد من أصدقائه الوطنيين التقدميين مثل: الشاعر عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)، والمحامي حنا نقارة، وذلك بسبب نشاطهم بين الجماهير الفلسطينية اللاجئة في لبنان، من أجل عودتها إلى أرض الوطن

خص إميل توما القضية الفلسطينية بأربعة مؤلفات هي: "جذور القضية الفلسطينية" و "٦٠ عاماً على الحركة القومية العربية الفلسطينية" و "منظمة التحرير الفلسطينية" و "الحركة القومية العربية والقضية الفلسطينية"، لهذا أطلق بعضهم عليه لقب: مؤرخ القضية.

* مـؤلفاتـه:

ألف إميل توما خمسة عشر كتاباً، وكتب مئات المقالات في الأدب والنقد الأدبي والسياسة والتاريخ والحضارة، أما كتبه فهي:

١- العرب والتطور التاريخي في الشرق الأوسط، دار "الاتحاد"، حيفا، ١٩٦٠

٢- ثورة ٢٣ تموز في عقدها الأول، دار "الاتحاد"، حيفا، ١٩٦٢.

٣- جذور القضية الفلسطينية، حيفا، ١٩٦٨.

٤- السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، مطبعة "الاتحاد"، حيفا، ١٩٧٣.

٥- يوميات شعب، (٣٠ عاما على "الاتحاد")، عربسك، حيفا، ١٩٧٣.

٦- ستون عاما على الحركة القومية العربية الفلسطينية، البيادر، القدس، ١٩٧٨.

٧- الحركات الاجتماعية في الإسلام، منشورات صلاح الدين، القدس، ١٩٧٩.

٨- العملية الثورية في الإسلام، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨١.

٩- طريق الجماهير العربية الكفاحي في إسرائيل، أبو سلمى، ١٩٨٢.

١٠- فلسطين في العهد العثماني، الفجر، القدس، ١٩٨٣.

١١- الحركة القومية العربية والقضية الفلسطينية، الأسوار، عكا، ١٩٨٤.

١٢- تاريخ مسيرة الشعوب العربية الحديث، الأسوار، عكا، ١٩٨٥.

١٣- الصهيونية المعاصرة، الأسوار، عكا، ١٩٨٥.

١٤- منظمة التحرير الفلسطينية، دار "الاتحاد"، حيفا، ١٩٨٦.

١٥- مختارات في النقد الأدبي، دار "الاتحاد"، حيفا، ١٩٩٣.

وقد صدرت الأعمال الكاملة في ٥ مجلدات عن معهد إميل توما للأبحاث بمدينة حيفا عام ١٩٩٥.

الفلسطينية.
ترجمت مؤلفاته إلى عدة لغات عالمية من بينها: الروسية والألمانية. كما ترجم بعضها إلى العبرية. ولو تأملنا هذا التكوين الإبداعي لدى إميل توما، لوجدناه تكوينا متنوعا وفي مجالات متعددة، ابتداءً من الكتابة في الأدب والنقد الأدبي والثقافة والتاريخ والسياسة. ولعل من أهم ما يميز كتابات إميل توما، دأبه على بعث الأمل وروح التفاؤل، ونشر الخير، والثقة انتصارا لصالح الإنسان وأهداف الطبقة العاملة كما يدعو إلى تغيير الواقع الاجتماعي، أو إلى إصلاحه وتحسينه في أقل تقدير.
له متابعات نقدية حول الأدب الفلسطيني المحلي لاسيما ما صدر منه بعيد النكبة في مجال الشعر والقصة والرواية والمسرح والسينما وغيرها. وقد كتبها في ضوء المنهج الواقعي الاشتراكي، وإن كان يبدي، من حين لآخر، بعض التساهل والمرونة في المقاييس النقدية، كما يؤكد ذلك هو نفسه بقوله "لم نحاول في دراسة هذه القصص استخدام المقاييس النقدية التي يستخدمها النقاد في العالم العربي أو في العالم الرحب. كذلك، لم نحاول مناقشتها على ضوء المدارس الأدبية المتصارعة.. فلم نستخدم الواقعية.. أو الواقعية الاشتراكية في تقويمها أو الحكم عليها". كما تأثرت متابعات إميل توما النقدية، فضلاً عن الواقعية الاشتراكية بالمنهج التاريخي. يتعرف القارئ عبر مقالاته تلك على مراحل تطور المدرسة الواقعية في الأدب والثقافة. يقول توما مما يقوله عن الأدب الفلسطيني المحلي من خلال ما كتبه في مجموعة من المقالات عنوانها "الشعر العربي الثوري": "مثل الأدب في كل مكان انقسم الأدب العربي... إلى أدب ثوري ملتزم، صبّت فيه جداول متباينة من حيث وعي أصحابها وجمالية إنتاجهم.. وأدب التزم أصحابه بالولاء للبلاط.. وأدب غير ملتزم تنوع فيه مدى الضياع والتجرد والهيام" (الجديد، عدد١، ص٧، ١٩٦٥)! وإن كان من الواضح أنه يحصر كلامه في المضمون.
يركز توما في كتاباته على المضمون أو الموقف، انطلاقا من إيمانه بأن وظيفة النص الأدبي تكمن في المضمون والموقف أولاً وقبل كل شيء. وعليه فإنه يناقش في كتاباته النقدية النص الأدبي من جهة مضمونه ومغزاه وأبعاده السياسية، وقد أوضح ذلك هو نفسه، من خلال كتابته التطبيقية في النقد الأدبي في مقالته على مجموعة محمد علي طه القصصية "لكي تشرق الشمس" (مع مجموعة لكي تشرق الشمس الجديد، العدد٣، آذار ١٩٦٤). من هنا، تجد أن اهتمامه ينصب بالدرجة الأولى على المضمون، حتى إنه لا يكاد يذكر الشكل إلا عرضا.
يشار إلى أن إميل توما اهتم بالمدرسة الواقعية والنظرية الاشتراكية، ولم يول سائر المدارس الأدبية والنقدية أي اهتمام تقريباً، ودعوته الدائمة إلى أدب ملتزم يرتقي إلى مستوى الأحداث وتحدياتها. أما قيمة الأدب، في منظوره، فإنها تتقرر موضوعيا يليها سائر الاعتبارات الأخرى. كما يشدد على ضرورة التزام الكاتب ووقوفه إلى جانب قضايا شعبه وهمومه، والإنسان بالمطلق، كذلك إلى جانب قوى الخير والحرية والإنسانية، في كل مكان وزمان، مؤكدا العروة الوثقى بين الأدب والمجتمع من خلال تناوله لموضوعات عصره وقضاياه. وفي منظوره أن الأدب انعكاس لموقف الأديب الفكري من واقع الحياة في المجتمع. وقد تمثّل الالتزام الأدبي تجاوبا مع شعار "الأدب الملتزم" على الساحة الأدبية العربية مع صدور مجلة الآداب البيروتية سنة ١٩٥٣ لصاحبها سهيل إدريس، كما طوره الفيلسوف الفرنسي سارتر في مقابل "أدب البرج العاجي"، الذي ينأى بنفسه عن هموم المرحلة، وإن كان قد أخرج الشعر من نطاق الالتزام وحصره في فن النثر. إلا أنه ما لبث أن تراجع عن موقفه هذا وعاد وأدخل الشعر في نطاق مبدأ الالتزام وقد طور سارتر رؤيته تلك بكتابه "ما الأدب؟". وقد يكون توما نهج هذا التوجه بفعل ظروف موضوعية، وأخرى مرحلية قسرية، فرضت شروطا خاصة على مسيرة الحركة الأدبية المحلية، التي كان من أهمها تداخل السياسي بالأدبي والأدبي بالسياسي.

البحث عة هوية فلسطينية محلية

ويلحظ المتابع أن هاجس البحث عن الهوية المحلية ما انفك يلازمه في كتاباته النقدية مثال ذلك مقالته (قصص بدون هوية، الجديد، العدد٧ تموز/آب ١٩٦٩) التي تعد من أهم مقالاته التي كتبها في النقد الأدبي تحت الاسم المستعار "ابن خلدون"، وهي مما يسترعي الانتباه وتجدر الإشارة إليها. تناول من خلالها المجموعة القصصية "البئر المسحورة وقصص أخرى" وقد اتسمت تلك المقالة بأنها أكثر حدة وجرأة وعمقاً من سابقاتها. كذلك، سخر فيها وفنّد ما ورد في مقدمة المجموعة من مزاعم بأن أحد العوامل التي شجعت على نشوء الأدب الفلسطيني المحلي، هو نشاط كتّاب العربية وشعراؤها ممن قدموا إلى فلسطين من يهود العراق في الخمسينات. يقول "من المضحك لا المبكي – على اعتبار أن شر البلية ما يضحك – أن يدخل الاستعلاء القومي بهذا الشكل الصبياني عند تقويم الأدب العربي... وكأن "رسالة التمدين" الإسرائيلية شملت لا "إيصال التراكتور" إلى القرية العربية فحسب بل بعث الأدب العربي من جديد" كما أخذ عليهم ابتعادهم عن الواقع!

> **ويلحظ المتتبع لكتابات توما أنه كان يركز فيها على علاقة الأدب بالمجتمع من منظور الواقعية الجديدة، والواقعية الاشتراكية، التي تهتدي بالنظرية المادية الجدلية في تفسير الأدب، وإيمانها بدور الإنسان الفرد، والطبقة العاملة، البروليتاريا، في المجتمع**

وقد أفصح إميل توما عن منهجه في النقد الأدبي مركزا على ميزتي الصدق والجرأة وتقديمهما على ما عداهما حيث يقول "إنني أنتسب إلى طينة من النقاد يقيسون الأدب بصدقه وجرأته.. وإذا فقد عمل فني الميزتين فقد مقومات الأدب"!
ما يُعرف عن إميل توما، في نقده الأدبي، أنه مسكون بهاجس الواقعية والواقعية (الجديدة) الاشتراكية تحديدا، فهو لا يزن إلا بميزانها، ولا يقيس إلا بمقياسها. وإذا كان يغلب عليه استعراض سريع ومقتضب للمضمون، فإنه لا يفرد أكثر من بضع جمل للكلام في الشكل، دون أن يأتي على ذكر النواحي الفنية.
ينظر توما إلى الأدب على أنه وليد رؤية صاحبه الأيديولوجية، وأن للظروف الموضوعية والأوضاع المادية دورا حاسما في بلورة تلك الأيديولوجية التي تنتج الأدب في كل مجتمع، كما يرى أن للعوامل الاجتماعية والاقتصادية دورا أساسيا في تشكيل المجتمع، وتأثيرا كبيرا في الفن. يركز بحثه في كتاباته على موقف الأديب من المجتمع وعلى المضمون الاجتماعي لما يكتب. ويلحظ القارئ على نقده وتحليله ودراسته لنص أدبي ما أنه يبحث عن قيم ترقى بالقارئ إلى مستوى الواقع الذي يعيش بين ظهرانيه انتصارا لقيم الحق والحقيقة والخير في وجه الباطل والشر والظلم مع مراعاته للظروف الموضوعية والمحلية التي تنشأ فيها الظاهرة الأدبية وكل أثر أدبي. يشار أيضا في السياق ذاته إلى أنه كان دائما حريصا في كتاباته من خلال تحليل الأفكار والمواقف على شحذ وعي القارئ، وفي الوقت نفسه ينطلق من هدف أن الإنسان في المركز، ولعل ارتكاز النقد لديه على نزعة إنسانية خالصة، من أهم ما يقدمه في طروحاته النقدية. ذلك ما يلحظه المتتبع لكتاباته بالذات في الأدب العربي الفلسطيني المحلي.
كما يؤكد أن أي نص أدبي، مهما بلغت صياغته اللغوية من فنية أو جمالية لا قيمة له إلا بما يحويه من مضمون ؛ جوهر النص الثمين. والمضمون يجب أن يعكس، بالدرجة الأولى، الواقع بما يحويه من تجارب ومعاناة وتأملات ويلامس الإنسان الساكن فيه. وقد يؤخذ على هذا النقد الأدبي، الواقعي الاشتراكي، كثرة الاهتمام والتركيز على المضمون لاسيما لجهة الصراع الطبقي، دون الالتفات إلى سائر القيم الشكلية والفنية الأخرى، وبطبيعة الحال أن يأتي ذلك على حساب جمالية النص وفنيته وقيمه الأخرى.
إميل توما علم بارز من أعلام الذاكرة الثقافية والوطنية للجزء المتبقي من أبناء الشعب العربي الفلسطيني في وطنه، له أياد بيضاء على مسيرة الحركة الأدبية والثقافية المحلية، لما قدمه من إسهامات جُلّى من مؤلفات ومقالات في مختلف مجالات الكتابة الأدبية والثقافية والتاريخية والسياسية. وتكشف كتاباته، لاسيما الدراسات منها، عن عمق نظرته إلى الأمور وأصالة تجربته فيها، مما جعل لها الأثر البالغ في صيانة الهوية والحفاظ عليها وعلى البقاء في البلاد، في وجه أدوات القمع والتشريد والحصار، وقد بدأ الكتابة منذ زمن مبكر وفي أحلك الظروف والمواجهة. كان إميل توما يواصل نشاطه بحيوية واجتهاد في مكتبه المتواضع نهارا، ويشارك في عقد الندوات الأدبية والثقافية واللقاءات والاجتماعات السياسية ليلا. ما يؤكد على أنه لم يقتصر اهتمامه على مجال البحث والكتابة، وإنما له نشاط واسع في المجال السياسي أيضا، لذلك أمكن القول: يعد إميل توما رائدا في الحقل الإبداعي في مجالي الأدب والنقد الأدبي تماما مثلما يعد مؤرخا وموجها في نشاطه الاجتماعي والسياسي.

في التأريخ

أصدر معهد إميل توما للأبحاث السياسية والاجتماعية في حيفا الأعمال الكاملة لإميل توما في أربعة أجزاء. كذلك، كتابه "مسيرة الشعوب العربية" الذي يسجل تاريخ مسيرة الشعوب العربية منذ بدء الاحتلال العثماني للأقطار العربية إلى تاريخ هذا الإصدار. لم يهمل الكاتب في كتابه هذا أي نضال أو حركة للتحرر من الاحتلال العثماني إلا ذكرها، كما يستعرض الحركات والنضال ضد الاستعمار البـريطاني والفرنسي للدول العربية.
خص إميل توما القضية الفلسطينية بأربعة مؤلفات هي: "جذور القضية الفلسطينية" و "٦٠ عاماً على الحركة القومية العربية الفلسطينية" و "منظمة التحرير الفلسطينية" و "الحركة القومية العربية والقضية الفلسطينية"، لهذا أطلق بعضهم عليه لقب: مؤرخ القضية.
يحلل إميل توما في مؤلفه "جذور القضية الفلسطينية" الحركة الصهيونية فكرا وممارسة، كحركة عنصرية رجعية خادمة للاستعمار، تقوم عقيدتها على الاستيلاء على كل فلسطين وعلى تشريد الشعب العربي الفلسطيني من وطنه.

تـوما والثقافـة العربيـة

لا شك في أن الأحداث المتعاقبة قبل النكبة وبعدها كان لها أكبر الأثر في تكوين حياة إميل توما الثقافية والفكرية، كمثقف فلسطيني ذاق على جلده النكبة وأهوالها بما في ذلك تشريد شعبه وضياع الوطن. واكب إميل توما مسيرة حياة الجزء المتبقي من الشعب العربي الفلسطيني على أرض وطنه، منذ بداية تشكلها مباشرة عقب النكبة عام١٩٤٨، فقدم إسهاما كبيرا في الدفاع عن الهوية الفلسطينية، والتمسك بها من خلال عمله في صحيفة "الاتحاد" ومجلة "الجديد" كما دافع عن الثقافة العربية في مرحلة حاول فيها الاحتلال الإسرائيلي طمس الهوية والثقافة العربية ونشر العدمية القومية. وأدت كل من "الاتحاد" و"الجديد" دوراً مهمًا في هذا المجال، وفي نمو كوكبة من الشعراء والكتاب الوطنيين الذين ابتعدوا عن كل تعصب قومي، وكانوا يعبـرون في كتاباتهم عن مشاعر شعبهم وهمومه وآماله. يعتمد إميل توما في تحليله للأحداث في كتاباته التاريخية لاسيما عن الحركات الاجتماعية على المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، في ضوء الفلسفة الماركسية والصراع الطبقي. وتعد تلك النظريات أو المناهج من المؤثرات الأساسية التي ساهمت في تكوين فكره النقدي والثقافي على السواء.
ويلحظ المتتبع لكتابات توما أنه كان يركز فيها على علاقة الأدب بالمجتمع من منظور الواقعية الجديدة، والواقعية الاشتراكية، التي تهتدي بالنظرية المادية الجدلية في تفسير الأدب، وإيمانها بدور الإنسان الفرد، والطبقة العاملة، البروليتاريا، في المجتمع. وأن يكون الفن مرآة صادقة تعكس روح الجماهير والقيم الاجتماعية، فإذا ابتعد عنها ابتعد عن الصدق. وفي الوقت ذاته ينظر إلى الأدب كونه عاملاً من عوامل الكفاح من أجل تحرير الشعوب والتزام قضاياها، فإن ما يعنيه أو يهمه بالدرجة الأولى هو سعيه نحو تغير شامل في سبيل حياة أفضل وأجمل، للفرد والمجتمع على السواء.
ويعمد توما في منهجه وطريقته إلى تتبع عوامل التأثر والتأثير، ومن ثم تحليل أسباب القضية المطروحة ونتائجها على بساط البحث، بما ينسجم مع فكره الاجتماعي والنقدي والثقافي.

مصادر الدراسة:

* أبو حمد، عرفان: أعلام من أرض السلام، جامعة حيفا، حيفا، ١٩٧٩.
* خليل، محمد: النقد الأدبي داخل فلسطين ٤٨ في نصف قرن، طبعة جديدة، دار الهدى للطباعة والنشر كريم ٢٠٠١، كفر قرع.
* غنايم، محمود: الجديد في نصف قرن، مسرد ببليوغرافي، مركز دراسات الأدب العربي، بيت بيرل و دار الهدى، كفر قرع، ٢٠٠٤.
* فرهود، كمال قاسم: موسوعة أعلام الأدب العربي في العصر الحديث، ط٣، مج١، مكتبة كل شيء، حيفا، ١٩٩٨.
* موريه، شموئيل و عباسي محمود: تراجم وآثار في الأدب العربي في إسرائيل ١٩٤٨-١٩٨٦، ط٣، دار الشرق، شفاعمرو، ١٩٨٧.
* الجديد، العدد٣، حيفا، آذار ١٩٦٤.
* الجديد، العدد٧، حيفا، تموز/آب ١٩٦٩.

عن الاتحاد الفلسطينية / حيفا

قريباً جداً:
(بغني) لأمل مرقس

بعـد اسـطواناتها الثـلاث "أمل" و"شـوق" و"نعنع يـا نعنع"، والتي نقلت الأغنية الفلسـطينية بشـكل عام وما يمكن أن يطلق عليـه الأغنية العربية الملتزمـة وكذلك أغاني التجديد التراثيـة العربية، إلى مسـتويات جمالية وفنيـة متقدمة في الأداء والكلمة واللحن والتوزيع، تنهي الفنانة الفلسطينية أمل مرقـس هذه الأيـام العمل على اسـطوانتها الأخيرة "بغني" برفقة طاقم من الموسـيقيين والملحنين القديرين مكون من الفنانين نسيم دكور ومهران مرعب، ومهندس الصوت والمنتج الموسيقي كيفين سـليم وشاحر كاوفمان، وذلك في قريتها كفرياسـيف في الجليل شمال فلسـطين. ويتم العمل على هذه الاسـطوانة بشـكل اسـتثنائي حيث يتم تسجيلها في أجواء بيت كفرساوي أثري وعريق هو بيت السيد رجا سعيد، والـذي يعود تاريخ بنائـه في حارة المراح إلـى أكثر من ٢٥٠ عاماً. ويعج البيت في هذه الأيام بالموسـيقيين وآلات العزف: الوترية والنفخية، النحاسية والخشبية وآلات الإيقاع بالإضافة الـى أجهـزة التسـجيل ذات التقنيـات عالية الجـودة والتي تسجل الأغنيات في فضاءات مختلفة في البيت من عقد الدار إلى الحوش وفـي القبو وعند بئر الماء، لتضيف إلى الأغنيات خلفيـات صوتة مـن الطبيعة القرويـة الفلسـطينية. وتحوي الاسـطوانة التي سـتصدر مطلع العام القادم إحدى عشـرة أغنية أشرف على توزيعها الفنان عازف القانون مهران مرعب، وهي: "بغنـي" كلمات والحان مهران مرعـب، "أمل" كلمات خير فودي والحان نسـيم دكور، "أباي" كلمات الشاعر مروان مخول والحان سمير مخول، "كم البعيد بعيد؟" كلمات الشاعر محمـود درويش والحان نسـيم دكور، "مسـاء صغير" كلمات محمـد درويش الحان مهران مرعـب، "ازرعوني زنبقاً" كلمات توفيق زياد، "شـيء في الحرب" كلمات توفيق زياد الحان نزار زريـق وأمل مرقس، "أنا رايحة" كلمـات مرزوق حلبي والحان نسـيم دكور، "باب الهوى" كلمات مرزوق حلبي، "على هذه الأرض" كلمـات محمود درويش والحـان فيوليت بارا، "خليني حدك" كلمات مهران مرعب والحان نسيم دكور.

وقد كثّفت مرقس العمل على اسطوانتها في الأشهر الأخيرة حيث تفرّغت لتسـجيله على أن يصدر مطلـع العام المقبل، وذلك بعـد حفلات عدة كانت أحيتها فـي مهرجان ووماد في نيوزلندا وأسـتراليا، والباسـك في إسـبانيا، ومهرجان الحرية في النرويج، وسـان سبستيان في إسبانيا، ومهرجان الحرية والإبداع في قطر، ومهرجان دبي للسينما وفي بلاد أخرى، وقد مثّلت مرقس من خلال حفلاتها وورشـات العمل الموسيقية التي شـاركت فيهـا، الصوتَ والفولكلورَ الفلسـطيني بأجمل صوره.

صفحة أمل مرقس في موقع ماي سبيس:
http://www.myspace.com/amalmurkus

المحرر

خاص - رمّان - أثناء التسجيل

خاص - رمّان - أثناء التسجيل

(بغني).. مع حبي..
أمل مرقس

خلال الأسـابيع القليلـة القادمة يرى النور عمل فني جديد، من الجليل، كفر ياسـيف، تم تحضيره على مـدار ايام طويلة، شـارك العشرات في صناعته، من داخل بيت عربـي قديم زاد عمره عن ٢٠٠ عاما، عنوانه "بغني" وجهته للناس والارض، للحب والحياة، توجهه لكـم الجليلية، كما يحب المعجبون أن يلقبونها، وينشرح قلبها عند سماعها، أمل مرقس.

ريمون مرجية

قصدنا منزل الفنانة الجليلية في كفرياسيف، كان الجو غريبا، اضواء عيد الميلاد، في شـوارع القرية ممزوجة بحزن وحداد على وفاة القس شحادة شحادة، التقيناها بعـد عودتها مـن تقديم واجـب العزاء، داخـل المنزل اختلف الوضع، مـع فتحها للباب خرج صوت عزف على القانـون يرحب بنا، واضواء شـجرة الميـلاد تلون غرفة الجلـوس بالاحمـر والاخضر، خطوة واحـدة واذ بالكلب "مارلـي" يأتي راكضاً، تنحنـي مرقس لتلتقطه، يحرك ذيله يريد المداعبة، تحتاج لعدة دقائق لتهدئته و"افهامـه" ان الوقت غير مناسـب الان لذلك، وهنـاك ضيف، وبعد ان فهم الرسـالة على ما يبدو، تمدد على الارض تحت الطاولة، يستمع لمـا يدور فـي الغرفة من حديـث، فيما واصل صوت القانون في تكوين خلفية موسـيقية غير متوقعة لمقابلتنا الصحفية.

"بغني"

هـو ألبومها الرابع، يضـم ١١ أغنية جديدة، بكلمات والحان فلسـطينية ١٠٠٪، أمـا العنـوان " بغنـي" فهو اسم إحدى الأغنيات، كتبها ولحنها مهـران مرعب، تقـول " من روحي بغنـي لأرضـي اللـي منـي، مـن روحي فني لأرضي التمني، لناسي وأهلي وللناسي المحبة، لتلالي ولسهلي ولجبالي وللتربة". تنشد ابنة كفرياسـيف الاغنية والابتسامة عريضة على وجهها " وتردف " معظم النصوص الموجودة تشدد على أهمية الأغنية في حياتنا".

خمـس اغان اخـرى هـي قصائـد للراحليـن محمود درويـش وتوفيق زياد، فتغني للاول " كم البعيد بعيد؟" الحان نسـيم دكور و "مساء صغير" من قصيدة الارض، لحنها مهـران مرعب و"على هذه الارض ما يسـتحق الحياة" بصبغة أمريكية لاتينية وبالتحديد تشيلية قامت هي نفسها باعدادها، وتشدو للقائد النصراوي الراحل "ازرعوني" و "شـيء في الحرب" الاولى الحان نسيم دكور والثانية من الحانها.

انا رايحة

على عكس نمط أغاني الحب الدارجة في ايامنا هذه، تقسـو أمل على حبيبهـا في "انا رايحـة" من كلمات الكاتـب الصحفـي مرزوق حلبـي والحان نسـيم دكور، اغنيـة للفـراق تعكس بها الادوار، تتخـذ المرأة القـرار، هي القوية، بينمـا الرجل يقف ضعيفا متوسـلا باكيا " انـا رايحة ع مطارح بعيدة وعارفة انك منك سـعيد بس انا رايحة... رايحة وعارفة راح تبكـي وتقولـي لازم نحكـي، يمكن لازم بس بقلك من اسا انا رايحة."

> -اصعبية؟
> -طبعاً وافتخر بذلك

أباي

بعـد الغنـاء للوطـن والارض والحبيـب، تغنـي مرقس لوالدها، في اغنية "أباي" كتبها الشـاعر مروان مخول خصيصاً للوالد نمر مرقس، الذي يعتبره بمثابة والد له، ولحنها سـمير مخـول، يقول فيها " قبل الندى رسـم الصبـاح ابي على حيطان روحي والمدى، مثل الصدى عتق الكلام جموح احرفه الطليقة، في سراح الميجانا

قبل النـدى.. اباي اباي يكفيني اني كلما ابكي على كتفيك يغويني الدفا".

أكل وضحك وغناء

ما يجعل الألبوم الجديد مميزاً ليس كلماته والحانـه الجليلية وحسـب، وإنمـا مكان تسجيله، داخل بيت عربي، يملكه صديق العائلة اسامة رجا سعيد، بناؤه وتفاصيله توفـر ما تعجز اكثر التقنيات تطوراً تقديمه، فما يقدمه سقفه العالي من صدى صوت لا يضاهيـه أي اسـتديو، بئر المـاء البالغ عمقه ٧ امتـار وصوت قطرات المياه وهي تتساقط في داخله، تتداخل مع صوت الات العـزف وهي تعانق صـوت مرقس، جعلوا الالبوم " اسـتثنائيا في السـاحة العربية بشكل عام والفلسطينية بشكل خاص".

لـم تقتصـر فوائد التسـجيل داخـل منزل قديـم فـي كفرياسـيف علـى النواحي الفنيـة الموسـيقية، بل تعدتها لتشـمل الاجتماعية، اولها اقحـام البيئة المحيطة بهـذا الجـو " عندما أسـجل داخـل بيت في بلـدي، افعّل البيئة من حولي، اجلب الجـو والعمل الفني الـى الحي" وبما ان العمـل كان داخـل بيئة منزليـة حميمة، كانت سـيرورة العمل كذلك، فكان اهالي العازفيـن والتقنييـن بالاضافـة الى عائلة مرقس تأتي بشـكل دائم الى "الاستديو المنزلي" تحضر طعام الغداء، يأكلون سوياً من "المشهيات" الجليلية.

مـع ذلـك، لا يعنـي ان العمـل الجليلي بكل نواحيه، سيكون متواضعاً تقنياً، على العكس، فقد اسـتعانت الفنانة بمهندس صوت قـدم من الولايـات المتحدة، يدعى كيفيـن سـليم، وهـو امريكي مـن اصل لبنانـي، قضى ١٥ يوما في كفر ياسـيف عاش داخل البيت\ الاسـتديو، وبعد انتهاء التسـجيل عـاد الى بـلاده ليقـوم بوضع اللمسـات النهائية على العمل في أفضل الاستيدوهات الأمريكية .

التراث يحمي

تتكـون عائلـة مرقـس الصغيـرة من زوج وولديـن بيولوجيين، وثلاث ابناء ترتبط بهم روحياً، يضاف اليهم ابن رابع سيولد قريباً، هم البوماتهـا التي أصدرتهـا حتى الان، ورغم ان الوالدة لا تميز بين أبناءها، تعتبر مرقس ان "بغني" له ميزات خاصة، به تنوع في الملحنين، وتجديد في مضامين الألحان والنصوص، باختصـار، تقول، هو عبـارة عن" نضوج فني". لكن في نفـس الوقت، هو ايضا مغامرة، اولا العمل الجديد تدفع مرقـس تكاليفـه من جيبهـا الخـاص، واذا اخذنا بعين الاعتبار ان سـوق الفنان المحلـي ضيق، ومن يدعى الى مهرجانات وحفـلات في الداخل او الخارج، يدعى لتأدية اغان تراثية ووطنية ملتزمة، ليبقى امام الاعمال الجديـدة والخاصـة للفنانين حيز اقل للانتشـار، تدرك مرقـس ان تقديم الاغاني التراثيـة تحمي مأديها " أن اغنـي أغان جديدة هو نوع مـن المغامرة والتحدي، انا مع هذا التوجه" وتواصل " التراث مخزون جميل ومغري لكل فنان، لكن هناك مبالغة من فنانين وفنانات بإعادة غنـاءه، هـذا يعود على مـا يبدو للتأكيد علـى الهوية والتراث، كما ان تسـويقه سـهل مقارنـة مع الاغاني الجديدة، يمكن ان يختبئ الفنـان وراء الاغنية التراثية لكنهـا بنفس الوقت أصعـب أداءًا"، وتلخص الموضوع "

خاص - رمّان - أثناء التسجيل

التراث مخزون جميل ومغري لكل فنان، لكن هناك مبالغة من فنانين وفنانات بإعادة غناءه، هذا يعود على ما يبدو للتأكيد على الهوية والتراث، كما ان تسويقه سهل مقارنة مع الاغاني الجديدة، يمكن ان يختبئ الفنان وراء الاغنية التراثية لكنها بنفس الوقت أصعب أداءًا

عندما أسجل داخل بيت في بلدي، افعّل البيئة من حولي، اجلب الجو والعمل الفني الى الحي

انـا مـع المغامرة، اقدم عملا فنيا غيـر محمي من أي مذهب".

انطلاقـاً مـن هذا، كيف تقيمين البوم سـناء موسـى الاخير؟

الحقيقة لم اسـمعه بعد، للاسـف لم اسـتطع حضور حفلتها ايضا، لكنها فنانة جميلة وتغني بشـكل جميل جدا.

وكيف علاقتك بباقي الفنانين؟

علاقتي جيدة مع الجميع.

الـى جانـب الغنـاء، تعمليـن ايضـا كإعلاميـة باذاعة الشمس، هل يؤثر ذلك على علاقتك مع زملائك؟

كلا، في الاذاعة لا امنع أحدا من الظهور، بل على العكس، هناك فنانون رفضوا ذلك.

أسماءهم!

لا حاجة لكشـف أسـماءهم. اود التشديد، عملـي الإعلامي لا يولد لي أي مشـكلة، بـل يعزز علاقاتي مـع الفنانين والناس. في برنامجي اجري المقابلات مع الجميع تقريباً، مع تحفظ على البعض.

مطربو الاعراس؟

ليس بالضرورة، سـبق واجريـت مع فيوليت سـلامة ومصطفى دحلة وخليـل ابو نقولا، فهم يقومون بالغناء على المسارح.

هل يمكن ان تغني في الاعراس؟

مسـتحيل. غنيـت فقـط في عـرس اختي فـي فقرة وغنيت ايضا في جيل ٥ سـنوات باعراس الجيران (ضاحكة)، وتتابع مستدركة " مطربـو الاعراس هم نتيجـة لظرف معين، انـا متأكـدة انهم يسـتطيعون الغنـاء على المسـارح وهناك من يقوم بذلك فعلا، وهم لديهم جمهورهم العريض، لا مشـلكة لدى بالمطربين فهم ليسوا مسؤولين، مشكلتي مـع الأعـراس، باتت كثيـرة وكبيـرة ومليئة بالضجيج".

الفن ليس للعيش

تغني أمل مرقس في الامسيات والمهرجانات، في البلاد والخارج ايضا، وتشـدد ان عروضها في العالم لا تقدمها بالضرورة امام الجاليات العربية " اغني للاسـتراليين في اسـتراليا وللأوروبيين في اوروبـا، والجميل انهم اينما حللت يعتقدون انني ابنة المكان، الايطاليون ظنوا اني ايطالية، والبرازيليون انني برازيلية" وتشرح بافتخار " هذا لاني اغني للانسانية، للناس والحب والحياة".

امميةٍ؟

طبعاً وافتخر بذلك.

وهل يوفر الفن دخلا كافياً؟

لا اعمـل في الفن من اجـل العيش، اعتمد اساسـا على اجـري من اذاعة الشـمس، لاني اولا لسـت امرأة متطلبـة، قنوعة، وما احصل عليه من حفلاتي في الخارج استثمره في اسطواناتي القادمة.

"حفلاتي في الخارج"؟

نعـم، هنـاك يدفعون اكثـر، لكنـي مع ذلك اعتبر نفسي محظوظة وسعيدة بالاطر التي تدعوني لاحياء الامسيات في البلاد.

في البيت عائلة وموسيقى

الى جانـب فنها وعملها، امل مرقس، هي زوجة لنزار زريـق، مهندس معماري، وام ليـارا (٢٠ عاما) وفراس (١٥) تحـاول ان تكـون معهم، دون ان تظلـم فنها، ان تكـون هنا وهناك، "ان اقسـم وقتي واوهب نفسـي للبيت والاولاد والزوج والفن ايضا" مدركة ان ذلك صعب جداً، واحيانا لا تنجح في ذلك.

العائلة من ناحيتها، لا تصعب الامور على الوالدة/الزوجة كثيراً، بل يمكن القول ان تسـهل المهمة، عندما يعزف كل فرد من افرادها على احدى الات الموسيقية، فراس علـى القانون (هو من كان يعزف عند دخولنا للمنزل)، ويارا على البيانو، اما الزوج نزار فيطرب امل بعزف العود، ويضعها امام تحدي كلماته التي غنت منها عدة اغاني مثل "شـوق" عنوان ثاني البوماتها، فكما تقول مرقس نفسها " الموسيقى تسكنهم بدرجات عالية".

خاص - رمّان - أثناء التسجيل

ثقافة الداخل: عن المنفى في الوطن

شهادة ألقيت في افتتاح مؤتمر الثقافة الفلسطينية بعد أوسلو، جامعة الخليل/كانون الأول ٢٠١٠

جئتكم من جبال ووديان الكرمل الذي ظل يحترق أربعة أيام متواصلة.
هامات الشجر الأخضر تحولت إلى لهب حارق وسرعان ما صارت حطبا وعيدانا سوداء، وضعتنا نحن الناس العاديين أمام عجز قاتل، كنا ندركه تماما، مقتنعين أننا لا شيء أمام الطبيعة حين تغضب ولكنها وضعت هذه الدولة المنتفخة أيضا أمام حقيقتها، وهي أنها لا شيء أمام الطبيعة حين تغضب.

سلمان ناطور

لا نشمت لاشتعال النار، فالأرض أرضنا والشجر شجرنا والطيون طيوننا وهكذا الثعالب والعقارب والنحل والفراش وما ليس منا ولنا هو ما يقيمونه على هذه الأرض الطيبة من هشاشة وزيف وطقوس للموت ونصب للهمجية وكره لأصحاب البلاد المقيمين عليها والمبعدين عنها.
من حقنا نحن أهل هذه الأرض أن نتهمهم بارتكاب جريمة بحق الانسانية على احتراق الكرمل أيضا لأنهم احتلوا هذه القطعة من الجنة ولم يصونوها.
***
مشهد الداخل الثقافي هو مشهدنا نحن الذين بقينا في الوطن على أرضه وتحت سمائه، وكان علينا أن نحافظ على أنفسنا وكان علينا أن نحافظ عليه أو على ما تبقى من فلسطينيته، ترابا وحجرا وتراثا ولغة.
صحونا من هول النكبة واذا بنا على الخط الأمامي في المواجهة السياسية والفكرية والحضارية ضد الصهيونية، مقطوعين عن أمتنا الأم ولا نتواصل إلا عبر أثير مشبوه ومربك وقصائد تتسلل إلينا من فضائنا الكبير اعتبرناها شيفرة العلاقة الحميمة بيننا وبين أهلنا وشعبنا وامتدادنا الأفقي.
كان على هذه القصائد أن تزاحم في وعينا ما اندس فينا من أشعار لحايم نحمان بياليك المهاجر من بلاد الصقيع وشرنيخوفسكي وغيرهما ممن صاغوا هوية المستوطن الجديد. وأنا الذي ارسلني أهلي يافعا إلى حيفا لم يقل لي أحد إن بيت شاعرنا القومي ابي سلمى، المهجر من حيفا الدافئة، لا يبعد عن مدرستي أكثر من خمسين مترا.
هكذا وجدنا أنفسنا في وطننا لكننا منفيون فيه. نصارع لنبقى ولنحيا أولا ولنعيد تشكيل هويتنا وثقافتنا ثانيا.
هي ثقافة المنفى لأن ثقافة الوطن لا تكتمل إلا بثلاثة: على أرض هي لك ووسط شعب هو لك وفي نظام هو لك ولنا أرض وشعب وأما النظام فهو عدو فرض حاله علينا وحد من حركتنا وقولنا ولا يربطنا به سوى ما ييسر أمر يومنا، يسلب منا نصف جهدنا وأكثر ولا يعطينا إلا فتات ما بقي عنده من صرف على حاله.
كتبنا عن الأرض وغنينا لها كما يليق بها ويليق بنا ونظمنا القصائد النارية دفاعا عن شعبنا وحبا له، كل ذلك في غياب مؤسسة توفر ما على المؤسسة أن توفره.
هي ثقافة بلا مؤسسة ولا مشروع. رومانسية إلى حدود العبث، ساخرة حد البكاء ومقاومة بلا هوادة. وما أدل على منفويتها أكثر من صرخة شاعرنا: سجل أنا عربي ورقم بطاقتي خمسون ألف، فأين تجدون على الكرة الأرضية شاعرا يقول لحاكمه سجل أن أنا هو أنا، إلا اذا قال له حاكمه وهو يجلده: أنت لست هو أنت. والبيت ليس بيتك.
أين تجدون على الكرة الأرضية جماعة أصلانية تعلن ولاءها لوطنها وشعبها صباح مساء كما يعلن فلسطينيو الداخل: نحن جزء لا يتجزأ من شعبنا الفلسطيني وأمتنا العربية وهنا وطننا ولا وطن لنا سواه.

أين تجدون على الكرة الأرضية جماعة أصلانية تعلن ولاءها لوطنها وشعبها صباح مساء كما يعلن فلسطينيو الداخل: نحن جزء لا يتجزأ من شعبنا الفلسطيني وأمتنا العربية وهنا وطننا ولا وطن لنا سواه.

نعلنها للجلاد الذي يهدد بترحيلنا ونعلنها لشعبنا منذ وضعتنا وثائق أوسلو في خانة الشأن الاسرائيلي، ونعلنها لأمتنا العربية التي حشرتنا أنظمتها في الغيتو الصهيوني ثقافة وانتماء لكي لا نكون جزء من مشروع ثقافي عربي وحدوي.
حررونا من قسم الولاء المصطنع فهو يؤسس لثقافة المنفى، ولنكن مدماكا من مداميك المشروع الثقافي العربي الوحدوي، كما ينبغي أن نكون.
لتكن مؤسسته الثقافية مؤسستنا، كما ينبغي أن تكون.
ليكن الوطن العربي من محيطه إلى خليجه فضاءنا، كما ينبغي أن يكون.
ولتكن علاقتنا ليس تواصلا بل وحدة وتلاحما وانصهار.
الذات لا تتواصل مع ذاتها.
الذات متحدة بذاتها.
الأنا يتواصل مع الآخر، وهل أنا الباقي في الكرمل فلسطينيا وعربيا هو الآخر حين يلتقي بابن الخليل والقدس ودمشق والقاهرة؟
علينا أن نكون كما ينبغي أن نكون.
سنفكك معضلة الانتماء الثقافي حين نزيل من وعينا الحدود والحواجز والخطوط والجدارات والوثائق المزيفة.
حين ننظر إلى وحدة الثقافة لا إلى أجزائها. وحين نشحنها بفكر تنويري ، متحرر وخلاق أصيل.
ثقافتنا في الداخل ثقافة منفى لكنها ذاكرة وطن. هي ذاكرة الأدب وأدب الذاكرة.
لم نكن مرفهين في ستين عاما لكي نكتب رواية خيالية عن قصص حب عذري او اباحي أو علم خيالي أو ثرثرة أدبية لأننا منشغلون حتى العظم بواقعنا الأغرب من الخيال وبهمنا الوجودي الذي يستحوذ على مشاعرنا ووجداننا وأقلامنا أيضا فتصدر عنا الرواية التسجيلية أو الواقعية النمطية التي نجلد بها احيانا حين نواجه بالسؤال: لماذا لا تخرجون من واقعكم؟ ومنهم من يسألنا ببراءة لأنه يريدنا أن نكون طبيعيين في واقع مستحيل ومنهم من يريدنا بخبث أن نتخلى عن دورنا التاريخي. ونحن ماضون في عصف ذاكرتنا لصياغة رواية نواجه بها أولئك الذين زيفوا رواية هذا الوطن وسيرته.
مشهدنا الثقافي في الداخل يستعيد ما كانت عليه فلسطين قبل النكبة، ويوثق ما هي عليه اليوم. وما كانت فلسطين صحراء وجبالا جرداء بل منارة ثقافية شعت على الشرق والغرب بما ابدعته من ادب ومسرح وموسيقى وفكر تنويري كان يقود إلى بناء شرق عربي حداثي ينافس أوروبا التي دمرتها حرب مصالح وعنصريات أوقعت خمسين مليون ضحية.
وحلت النكبة لتوقف هذا المد الحضاري.
نكتب عن حيفا وعكا والقدس ويافا بما نشرته من أدب وبما أنشأته من ورشات ابداعية وبما شيدته من عمارات وبما زرعته من زيتون ولوز وتين ورمان.
نكتب عن رحلة الصحراء التي قطعها الانسان الفلسطيني ولا يزال يمشي بين صواب وتيه وبين يأس وأمل وبين تراجع ثم تقدم ثم تراجع وتقدم، دون كيشوتي الارادة وسيزيفي المنال، وهو أنا وأنتم في ما نأكل ونشرب ونتأمل ونغضب ونحلم ونتألم ونقاوم .
انه أدب عن موت الانسان لكن عن حياته أيضا.
لا نتوقف عند ذاكرة الموت بل نبني ذاكرة الحياة معها لكي لا ننتحر أو نرتكب الجريمة.
هذا هو درس الثقافة بعد أوسلو، أو ردا عليها لكي تكون ثقافتنا ثقافة وطن وذاكرة وطن.
***
احترق الكرمل وقبل أن تخمد النار بدأ المسؤولون عن احتراقه يتراشقون التهم ويستخلصون العبر.
انتقلت النار إلى مكاتبهم ووزاراتهم ومسؤوليهم ولن يخمدها أن علقوا تهمة احتراقه برقبة طفل عربي من أهله وهو منها براء.
كلهم مدانون بارتكاب الجريمة، ليس فقط لأنهم أهملوا وناموا في ساعة الحراسة، بل لأنهم منذ ستين عاما وأكثر تعاملوا مع طبيعة بلادنا بثقافة ليست ثقافتها.
فتحوها بمفاتيح الثقافة الأوروبية استعلاء على الشرق وإمعانا بحق القوة لا قوة الحق.
لقد جعلوا شجرة الكينا بطلا ثقافيا نسجوا حولها الاساطير عن قدرتها في تجفيف المستنقعات التي وصفوا بها بلادنا وانهارت هذه الأسطورة قبل سنوات عندما اكتشف خبراؤهم أن تجفيف الحولة أحدث خللا قاتلا في الطبيعة واعترفوا بخطئهم وخطيئتهم وبدأوا يعيدون المياه إلى ما بقي من أرض الجليل التي بنوا عليها مستوطناتهم وفنادقهم.

نعلنها للجلاد الذي يهدد بترحيلنا ونعلنها لشعبنا منذ وضعتنا وثائق أوسلو في خانة الشأن الاسرائيلي، ونعلنها لأمتنا العربية التي حشرتنا أنظمتها في الغيتو الصهيوني ثقافة وانتماء، لكي لا نكون جزء من مشروع ثقافي عربي وحدوي

وجعلوا شجرة الصنوبر الأوروبي بطلا ثقافيا فقلعوا أشجار الزيتون والسنديان والتين والرمان التي زرعها أهلنا وغرسوا أشجار الصنوبر الإبرية واليوم، بعد الحريق، اكتشف خبراؤهم أن هذا الشجرالأوروبي لا يتناسب وطبيعة بلادنا لأنه سريع الاشتعال وأوصوا باقتلاع ما بقي منه على قيد الحياة.
هذه هي عبرة الصنوبر وانهيار الأساطير في ما قالته طبيعة بلادنا لفاتحيها من الغرب.
فليعرفوا طبيعة بلادنا وليسألوا أهلها عن مفاتيحها.

للمتابعة . .

اتحاد الكتاب الفلسطينيين في حيفا وهواجس الاستقلالية الثقافية لعرب ٤٨

قبل أن يرحل عام ٢٠١٠ أعلن في مدينة عكا عن تأسيس "اتحاد الكتّاب العرب الفلسطينيين- حيفا"، وذلك بعد جهود ومساع حثيثة، واتصالات مطوّلة ومتشعبة تولى دفعها قدمًا على نحو خاص الشاعر سامي مهنا (الذي اختير في الجلسة التأسيسية رئيسًا للاتحاد).

أنطوان شلحت

ويتميّز هذا الاتحاد بتصوّر فكريّ يرى في الأدب والفكر والثقافة بمثابة خندق أساسيّ يمكن من خلاله أن يحافظ الأدباء الفلسطينيون في الداخل على تماسكهم وهوّيتهم الوطنية والقومية ولا سيّما بمفهوميها الثقافي والحضاري، ويحترم التعددية الفكرية والعقائدية والحزبية.

كما أنه يتميّز بتصوّر تنظيمي يتيح من جهة أولى إمكان ضم أكاديميين إليه، بحيث تنبثق عنهم لجنة أكاديميّة تقوم بمواكبة الأدب الفلسطيني المحلّي بشكل خاصّ بحثًا ونقدًا وتقويمًا، ويخصّص من جهة أخرى لمن يصفهم بأنهم أدباء من الرعيلين الأوّل والثاني "وصلوا إلى مكانة عالية في المشهد الثقافي الفلسطيني والعربي والعالمي" موقعًا خاصًا كمجلس استشاري فعليّ هو المرجعية الفكرية العليا للاتحاد، وتبقى مكانتهم في هذا المجلس دائمة، وهم فوق الإطار التنظيمي العام وغير خاضعين له، عدا إمكان الترشيح والانتخاب، فهم ينتَخبون ولا يُنتخبون، لتبقى مكانتهم ثابتة، فوق المنافسة والتغيير.

ويحمل الاتحاد الجديد مشاريع عينية كثيرة وطموحة، على غرار: إصدار مجلّة أدبية فصلية تُعنى بنشر مواد أعضاء الاتحاد بشكل خاص، ونشر وإبراز الأدب الفلسطيني والعربي، والتواصل مع كتّاب العالم العربي، والعالم الأوسع؛ إقامة موقع الكتروني فعّال للاتحاد، وتسويقُه عربيًا وعالميًا؛ العمل على تمويل طباعة إصدارات أعضاء الاتحاد في دور نشر عربية؛ التواصل مع المؤسّسات الأدبية محليًّا فلسطينيًا وعربيًا؛ إقامة مهرجان أدبي سنوي وأمسيات شعرية وأدبية في فترات غير متباعدة؛ العمل على فتح مقّر خاص في إحدى المدن العربية؛ إصدار أنتولوجيا للأدب الفلسطيني في الداخل في دار نشر مرموقة؛ التواصل الفعلي مع الأوساط الأدبية والثقافية فلسطينيًا، عربيًا وعالميًا؛ التواصل مع الهيئات الأكاديمية والمؤسسات الأدبية والثقافية في البلاد وفي مناطق ١٩٦٧ وعربيًا وعالميًا؛ التواصل مع الهيئات المسؤولة ومنظمي المهرجانات الشعرية والأدبية عربيًا وعالميًا؛ التواصل مع اتحادات ورابطات الكتاب في فلسطين والعام العربي والعالم؛ التواصل مع لجنة المتابعة العربية في الداخل، واللجان الوطنية غير الحزبية، لأجل المشاركة الفاعلة في المناسبات الوطنية والقومية؛ العمل على قضية الترجمة والنشر في صحف أجنبية بما في ذلك عبرية؛ إقامة مكتبة وطنية تؤرشف كل ما صدر في البلاد والشتات لكتاب فلسطينيين وما سيصدر عن الاتحاد والمؤسسات الفلسطينية.

ولقد شهدت الحركة الأدبية الفلسطينية في الداخل في الماضي غير البعيد بضع تجارب في هذا المضمار بدأت بالقدر نفسه من الطموح، لكنها اندثرت بسبب الخلافات السياسية والحزبية، وبسبب "الحروب الصغيرة" بين الأدباء أنفسهم. وعلى ما يبدو فإن القائمين على هذه المبادرة الجديدة ليسوا مدفوعين بالحماسة لملء الفراغ الناشئ عن انعدام إطار جامع فحسب وإنما يحاولون أيضًا الاستفادة من عبر التجارب السابقة كي يتجنبوا عثرات الطريق اللاحقة.

مع ذلك، فمن الجليّ أن طريق هذا الاتحاد الوليد لن تكون كلها مفروشة بالورود، وحتى إذا ما استثنينا أشواكًا كثيرة تحيل إلى النفوس الفاعلة، كما هي الحال في أي مجتمع، تبقى ثمة أشواك كثيرة أخرى في تلك الطريق، في مقدمها مسألة العلاقة البنيوية للاتحاد مع المؤسسة الإسرائيلية أو مع اتحادات الكتاب الأخرى في إسرائيل. وهي مسألة لا بُدّ من أن تنعكس في الوقت نفسه على علاقة الاتحاد مع العالم العربي. وبناء على ذلك فإن أول موضوع سيكون هذا الاتحاد مطالبًا بحسمه هو موضوع الاستقلالية الثقافية، الذي يحيل إلى ما هو أعمّ وأشمل، أي مستقبل المجتمع الفلسطيني في الداخل في ظل المفترقات الراهنة التي وصلت إليها القضية الفلسطينية.

أول موضوع سيكون هذا الاتحاد مطالبًا بحسمه هو موضوع الاستقلالية الثقافية، الذي يحيل إلى ما هو أعمّ وأشمل، أي مستقبل المجتمع الفلسطيني في الداخل في ظل المفترقات الراهنة التي وصلت إليها القضية الفلسطينية

ومن المعروف أن موضوع الاستقلالية الثقافية لا يحظى بإجماع- كي لا أقول إنه موضع جدل وخلاف كبيرين- في صفوف القوى السياسية- الفكرية الفاعلة لدى الفلسطينيين في الداخل، والتي تتوزّع على ثلاثة تيارات رئيسية هي الإسلامي والشيوعي والقومي. وبينما يرى التيار الأقدم (الشيوعي) أنه لا غضاضة بتاتًا في الحصول أو في تحصيل أموال دعم من المؤسسة الإسرائيلية بحكم واقع المواطنة، ويتطلع إلى أن يحظى بالمساواة في مواجهة سياسة إسرائيلية عامة قائمة على الإقصاء والتهميش والتمييز العنصري، فإن التيارين الآخرين ولا سيما التيار القومي يريان أن هذه الأموال وإن كانت حقًا يجب ألا يضيع وأن يكون وراءه مُطالب، لن تكون بحال من الأحوال متنائية عن الغايات العامة للمؤسسة الإسرائيلية التي تناصب المجتمع الفلسطيني في الداخل العداء الشديد، خصوصًا وأن سياسة الإقصاء والتهميش والتمييز العنصري فيما يتعلق بالحقوق الجماعية لهذا المجتمع قد ازدادت غلواء في الآونة الأخيرة ولا تزال. كما يؤكدان أنه على المستوى المدني يجابه الفلسطينيون، أفرادًا وجماعة، تمييزًا عنصريًّا شاملاً في غالبية المجالات الحياتية في إسرائيل: الحق في الأرض، والتعليم، واللغة، والعمل، والاقتصاد، والثقافة، والبيئة، والبنى التحتية، والصحّة، والتمثيل السياسي، وإمكان الوصول إلى المعلومات، والمخصّصات الحكوميّة والميزانيات المختلفة. وفي المحصِّلة، فإن المجتمع الفلسطيني في الداخل يعيش في مستوى معيشة منخفض؛ فنسبة البطالة ونسبة الفقر مرتفعتان إلى درجة بالغة وخطرة، وتفتقر الكثير من بلداته وقراه إلى الخدمات الصحيّة، التربويّة، والبنى التحتيّة الأساسيّة التي من شأنها أن تبعث الأمل في إمكان أي تغيير مستقبلي. وبإيجاز يمكن القول إنّ المجتمع الفلسطيني في الداخل محتجز في إسار مواطنة من الدرجة الثانية هي بمثابة عثرة أمامه لنيل حقوقه وحقوق أبنائه، الجماعية والفردية. وفي ضوء هذا، فإن المجتمع الفلسطيني يواجه أولاً ودائمًا تحديين يسيران بشكل متداخل: التحدي الأول في مواجهة ذاته- بناء مؤسساته السياسية، الاقتصادية والثقافية المختلفة التي تستطيع أن تعبر عن خصوصيته، انتمائه، احتياجاته وتطلعاته التي يقف في صلبها الحوار البناء بين مختلف تياراته السياسية الفاعلة، وبناء ديمقراطيته الاجتماعية وفي مقدمها المساواة بين المرأة والرجل. والتحدي الثاني- في مواجهة الآخر، المتمثل في الدولة بسياساتها ومؤسساتها وفكرها.

قبل حوالي أربعة أعوام صدر عن الكنيست الإسرائيلي قانون يقضي بإقامة مجمع للّغة العربيّة في الداخل، ليهتمّ بشؤون اللّغة العربيّة وإعلاء شأنها، لأنّها لغة المواطنين العرب، ولغة معترف بها رسميًّا في الدولة. وقد أثار الأمر سجالات لم تنته في ما إذا كان يجب الانخراط في هذا المسعى أم لا، أيضًا في ضوء رهنه برضا المؤسسة عن المشتغلين فيه، وكانت النتيجة استبعاد كفاءات مشهود لها من هذا المجمع على الرغم من استقطابه لغيرها، ثم إقامة مجمع لغة عربية آخر في إحدى الكليات الأكاديمية العربية، في وقت استمرت فيه المبادرات الخاصة في هذا الشأن. وقد يدعي قائل إن في النتيجة العملية ما يشف عن نشوء حالة من التعددية، غير أن الواقع يبقى أعقد من ذلك كثيرًا، والمجمع اللغوي الذي أقيم وفق أصول لعبة المؤسسة الإسرائيلية يحمل في طياته الغاية البديلة من غاية الاستقلالية الثقافية على الرغم من أنها ستكون نسبية بحكم الظروف الموضوعية التي تحف بكينونة فلسطيني ٤٨.

وبالنسبة لاتحاد الكتاب فإن ما يجب أن يُقال هو: لكل شيء زمان ومكان، ومثلما أن للكفاح الشعبي زمانًا ومكانًا- علمًا بأن معركة الفلسطينيين في الداخل مفتوحة على الأزمنة والأمكنة كلها- فإن للكفاح الحقوقي زمانًا ومكانًا أيضًا، والوضع الأفضل يكون عندما ندرك أنه ما من تناقض بين هذين الكفاحين اللذين يكملان بعضهما، وأن التعامل معهما كنقيضين ينم عن تقصير في المسؤولية الجماعية، باعتبار أن تأسيس اتحاد للكتّاب يشكل مرحلة متقدمة من التحلي بهذه المسؤولية ومن النمذجة عليها في حقل ليس من المبالغة النظر إليه على أنه بمثابة جدار أخير.

ثمة هاجس آخر: إن مسألة تواصلنا الثقافي مع العالم العربيّ هي مسألة محسومة تاريخيًا ومبدئيًا، فضلاً عن أنها تتم بأشكال مختلفة في الحدود الدنيا. مع ذلك، فإن السؤال هو: هل هي مُدرجة في جدول أعمال القيادة العربية في الداخل؟. إن هذا التساؤل لا يأتي من فراغ، ذلك بأنها لو كانت مُدرجة فمن الحتم أن يسفر ذلك عن اعتماد خطة أو برنامج عمل في سبيل دفعها قُدمًا. وربما حان الوقت من ضرورة الهجس بخطة كهذه، على أن تُطرح أيضًا بمبادرة منّا على أجندة وزراء الثقافة العرب، وعندها لا مفرّ كذلك من الإلحاح على مطلب إزاحة "عقبات قانونية" عربية تحدّ بدورها من تكريس هذا التواصل، حتى على المستوى الفرديّ. والتقصير في هذه المسألة أيضًا هو تقصير في المسؤولية الجماعية. وهذا التحدّي هو من صنف التحديات التي لا مفرّ من أن يتصدّى لها اتحاد الكتاب الوليد في مواجهة ذاته الخاصة والعامة.

نشرت المقالة بصيغتها الموجزة في جريدة الحياة

أنا إنسان

منذ الاجتياح الغاشم لمخيم جنين عام ٢٠٠٢، تواصل وسائل الإعلام الاسرائيلية ملاحقة عدسة محمد بكري في المحاكم وفي الشارع الإسرائيلي، في حملة تحريض عنصرية سافرة، ضمن سياسة كمّ الأفواه التي تمارسها ضد الجماهير العربية وقياداتها.

محمد بكري

أثناء الاجتياح الإسرائيلي العسكري المسمّى بـ"الجدار الواقي" عام ٢٠٠٢، شاركت بمظاهرة حضرها المئات من اليهود والعرب المطالبة بوقف الحرب على حاجز الجلمة شمال شرق جنين، فمرّ جندي إسرائيلي وفتح النار عشوائيًا باتجاهنا، وأصيبت الفنانة فلنتينا أبو عقصة وخضعت للعلاج في المستشفى لفترة طويلة.

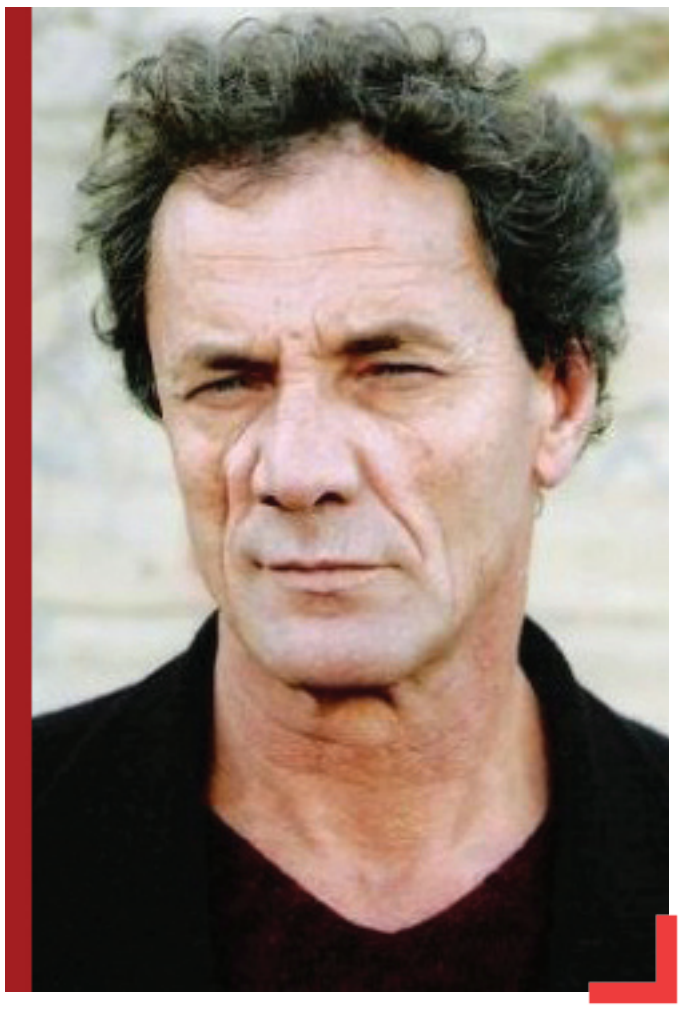

هذا التصرّف الوحشي لذلك الجندي اتّجاه مواطنين أبرياء ومسالمين، جعلني أتساءل كيف يتصرّف هذا الجندي داخل مخيّم جنين، فقرّرت دخول المخيم وقمت بتصوير فيلم "جنين جنين"، فقامت الدنيا ولم تقعد ومَنعت الرقابة الإسرائيلية عرض الفيلم لمدّة سنتين، بحجّة "أنه أحاديّ الجانب ويربك المشاهد ويوهمه بأن الجيش الإسرائيلي ارتكب جرائم حرب بحقّ الفلسطينيين!!". فالتمستُ لمحكمة العدل العليا ضد قرار الرقابة وحصلت على مصادقة بعرض الفيلم ونوّهتْ المحكمة العليا بالنصّ الحرفي "لا لأحد مونوبول (ملكية مطلقة) على الحقيقة".

لم تنته الحكاية هنا، وبإيعاز من قوى الظلام شكاني خمسة من الجنود الإسرائيليين، بتهمة القذف والتشهير بسمعتهم، مطالبين بمبلغ مليونين وسبعمائة ألف شيكل!!. وبعد عدّة جلسات في المحاكم، كان آخرها في المحكمة المركزية في بيتح تكفا، خسر الجنود القضية. وبإيعاز مجدّد من المستشار القضائي للحكومةً في حينه (مزوز)، لم يرضخ هؤلاء الجنود للقرار واستأنفوا لمحكمة العدل العليا التي ستنظر بإلتماسهم بتاريخ ١٩-١-٢٠١١ أي بعد أسبوعين تقريبًا من اليوم.

الجدير ذكره أن الجنود الخمسة المشتكين، لا يظهرون في فيلم "جنين جنين" كليًا، لا بالاسم ولا بالصورة، مما يؤكِد أن القضية برمّتها هي انتقام لكسر شوكتي ومحاولة ابتزازي وممارسة سياسة الترهيب وكمّ الأفواه.

إنني فنان ملتزم بقضية الإنسان، أي إنسان، بغضّ النظر عن لونه أو انتمائه القومي والعرقي، فقد شاركت بعدّة أفلام تتعلق بحقوق الإنسان، منها فيلم يتحدّث عن مذبحة ألأرمن عام ١٩١٤، من إخراج ألإخوة تافياني. وفيلم آخر عن مذبحة اليهود التي ارتكبها النازيون إبّان الحرب العالمية الثانية. وفيلم آخر عن مذبحة الأكراد عام ٢٠١٠ ومسرحيات عن الأبرتهايد في جنوب أفريقيا.

لقد تردّدت كثيرًا قبل أن أخطّ هذا البيان ولكنني رأيت من واجبي أن أوضّح للقاصي والداني ما يدور، بالرغم من ملاحقتي على كافة الأصعدة منذ عام ٢٠٠٢ من قبل دولة إسرائيل، في وسائل الإعلام ومن على منصّات الكنيست. لن أصمت، ما دام الظلم يسود في عالمنا، فهذا حقّي أولاً كإنسان وواجبي كفنان، وأقول لهم: "كفّوا أيديكم وألسنتكم عني، أنا إنسان".

بالرغم من ملاحقتي على كافة الأصعدة منذ عام ٢٠٠٢ من قبل دولة إسرائيل، في وسائل الإعلام ومن على منصّات الكنيست. لن أصمت، ما دام الظلم يسود في عالمنا، فهذا حقّي أولاً كإنسان وواجبي كفنان، وأقول لهم: "كفّوا أيديكم والسنتكم عني، أنا إنسان".

«قدّيتا. نت»: نافذة (ثقافيّة) إلى فلسطين

قَدّيتا قرية فلسطينيّة، هُجّر أهلها عام النكبة. «قدّيتا. نت» موقع جديد على الشبكة العنكبوتيّة، منحه الكاتب والصحافي علاء حليحل، اسم قريته وألوانها. كأنّ المساحة الافتراضيّة «تعويض (مرحلي؟)» عن «حضور جسدي غائب»، وعن حضور جغرافي مؤجّل.

سناء الخوري

حين انطلق «قدّيتا. نت»، منتصف آب (أغسطس) الماضي، راهن على إعطاء مساحة للأقلام الشابّة. قصائد وقصص قصيرة وخواطر ونصوص لراجي بطحيش، وسليم البيك، وأسماء عزايزة، وهشام نفاع، وغيرهم في زاوية «أدب».

رغم المساحة المخصصة للمساهمات النقديّة، تبقى المساحة الذاتيّة طاغية على المواد المنشورة على حائط «قدّيتا. نت». «قرّرنا منذ البداية، أنّنا لسنا موقعاً إخبارياً. لهذا لا ننشر الأخبار السريعة واليومية. نريد الموقع واحة يتخلّص فيها المتصفح من الأخبار وضجتها. نحن لا نسعى وراء أي موضوعية أو صياغات «إخبارية مهنية»»، يشرح علاء حليحل.

لكنّ انحياز الموقع إلى الذاتيّة، يأتي من قلب الراهن في الوقت عينه. مقالات في السياسة في ذكرى أبو عمار، وخواطر في ذكرى الانتفاضة الأولى والنكبة، إضافةً إلى تلك الشهادات الساخرة والمؤلمة التي اقترحها الموقع يوم صدّقت حكومة الاحتلال على مشروع قانون يلزم فلسطينيي الداخل أداء قسم الولاء للدولة اليهوديّة الديموقراطيّة. يومها قرأنا تحت عنوان «نحن نقسم»: مبدعون شباب يعلنون ولاءهم للسمك، والقهوة، والشاورما!

قد يكون الرهان الأكبر الذي كسبه «قدّيتا. نت» أنّه تحوّل منبراً حراً لشباب فلسطينيين، يحكون، من دون أدلجة وكليشيهات وقيود، معنى أن تكون فلسطينياً اليوم.

في زوايا «قدّيتا.نت» أيضاً كل ما تريد معرفته عن الإصدارات الموسيقية، والمواعيد الأدبيّة، والأعمال المسرحيّة في الداخل. هكذا، ورغم اختياره سياسة تحريريّة بعيدة عن الآنية والخبريّة، يبقى الموقع نافذة حقيقيّة على راهن فلسطين، وآلام شبابها.

لكن هذا ليس إنجازه الوحيد. منذ انطلاقته، راهَنَ الموقع على تحدّي الخطوط الحمراء. زاوية «مثليون ونصف» مثلاً، سببت منعه في السعوديّة والكويت، وصارت مساحة مفتوحة لكلّ أشكال الغزل المثلي، والإيروتيكي غالباً، بالعامية الفلسطينية، أو بالفصحى.

«نحن نرى مثلاً أن حقوق المثليين لا تقلّ أبداً عن حقوق الفلسطينيين تحت الاحتلال»، يوضح حليحل. «نحن متجنّدون برؤانا وأفكارنا ونظرتنا الكونية الواسعة لمفهوم الحقوق ومفهوم الإنسان، ولسنا «ملتزمين» بالمعنى الدارج للكلمة: الآن يوجد احتلال ولا ينبغي التطرق إلى قضايانا الاجتماعية الداخلية».

في تعليقه على شريط «ميرال» لجوليان شنابل، سأل سليم البيك: «ليش قضيتنا كتير سكسي، وإحنا لأ؟» قد يكون الرهان الأكبر الذي كسبه «قدّيتا. نت» أنّه تحوّل منبراً حراً لشباب فلسطينيين، يحكون، من دون أدلجة وكليشيهات وقيود، معنى أن تكون فلسطينياً اليوم.

www.qadita.net

عن الأخبار اللبنانية

http://www.horria.org/romman.htm

ثقافية . فنية . فلسطينية

جان جينيه في ذكراه المئوية.. أهم كاتب غربي فضح الممارسات الإسرائيلية

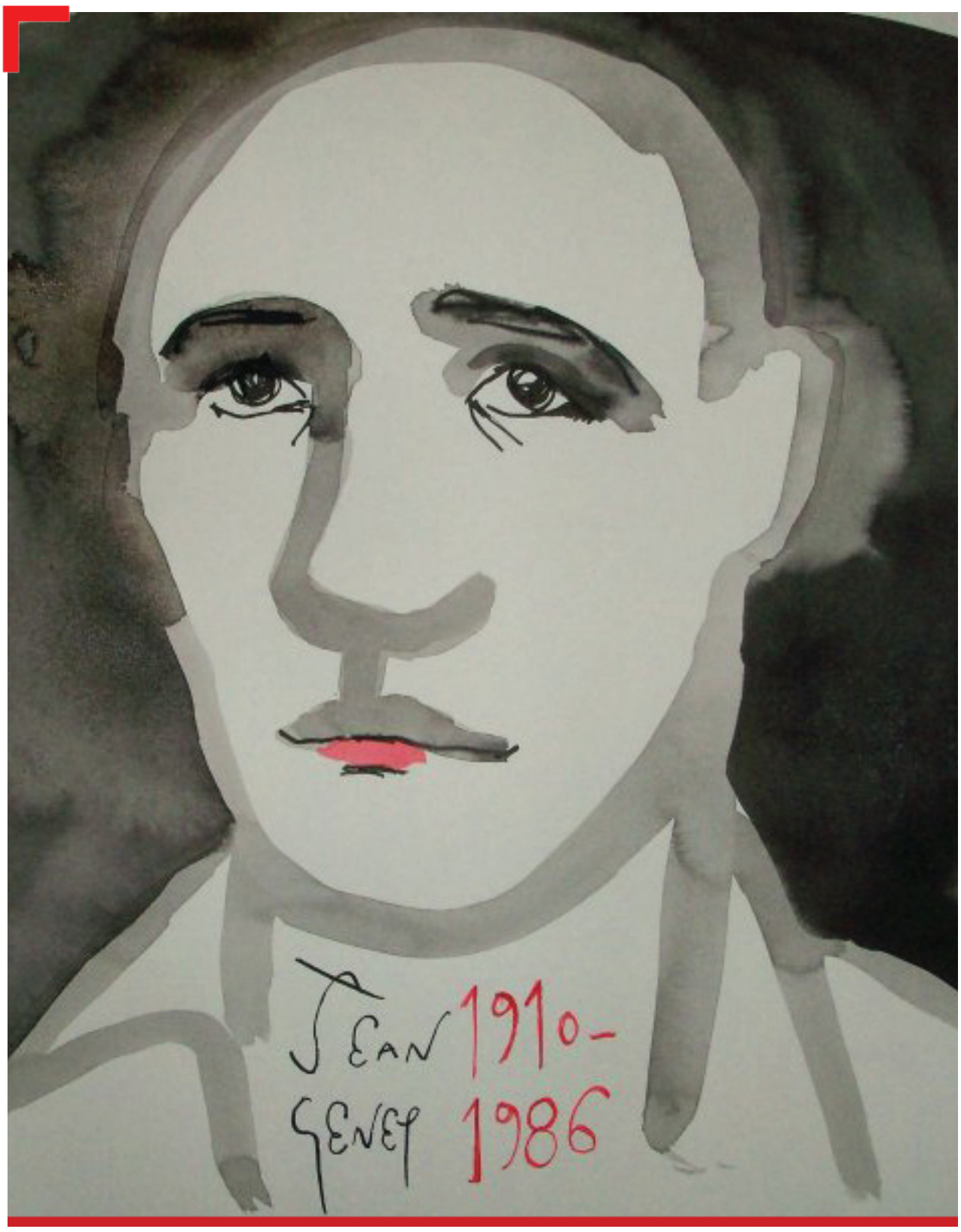

دمشق - سانا

٢٠١٠/١٢/١٤ يعـود الأديـب والمسـرحي الفرنسـي جان جينيه إلى الذاكرة بمناسـبة مرور مئة عام على ولادته في باريس فهو المتمرد بشعرية عالية والمناصر للإنسـانية أينما حلت والمناهض لكل أشـكال الظلم والعنصريـة ابتداء من تلك التي مورسـت سـبعينيات القـرن الفائت فـي بلده الأم فرنسـا مـروراً بالولايات المتحدة الأمريكيـة وعنصريتها ضد الزنوج وليس انتهاء بالممارسات الهمجية للاحتلال الصهيوني ضد الشعب الفلسطيني.

إنه أكبر كتاب عصره هي عبارة الفيلسـوف جان كوكتو إلى القضاة الذيـن أرادوا محاكمته فتراجعت المحكمة عن الحكم عليه بالسـجن مدى الحياة إنه جان جينيه الرجل الأسطورة الذي ولد في التاسع عشر من كانون الأول عـام ١٩١٠ لأبويـن غيـر معروفين ونشـأ لقيطاً متشرداً فأمضى أياماً كثيرة في السجن كان لها تأثيرها عليـه حيث بدأ الكتابة هنـاك وأغلب أعماله كانت في الزنزانـة كقصيدته الطويلة الرجـل الذي حكم بالإعدام التي نشـرت عـام ١٩٤٢ وأيضاً روايته الأولى سـيدتنا ذات الأزهار الغنية باستعاراتها وبراعة تراكيبها.

ويقـول جينيه إنـي وحيد في هذا العالـم ولا أعلم إذا كنت ملكاً لأزهار الطبيعة أم شـيطاناً لها فهي شعري ومنها تمتد جـذوري إلى التراب الذي تغذى من عظام الأطفال والشباب أريد أن أنتمي للطحالب والسراخس كي أبتعد عن البشر.

في كتاباته وأشـعاره ومسـرحه يلحظ القارئ معاناته والظـروف الصعبة التي عاشـها وإرادتـه الواضحة في تحويـل الرذائل إلى فضائل لاسـيما أنه كان يظهر في أدوار ممثليـه على المسـرح وهذا جعلـه الصوت الحر الذي دوى في فضاء الأدب العالمي حيث أثار مسرحه الكثير من الصخب وأزعجت مواقفه السياسية الكثيرين.

يقـال ان كوكتـو هو أول من اكتشـف جينيـه وأعجب بأعمالـه لكن لقاءه بـ جان بول سـارتر عام ١٩٤٢ كان أقـوى حيث قامت بينهما صداقة متينة جداً ولمس فيه سـارتر شخصية وجودية تماماً حيث قال عنه لقد حول يأسه وتمرده إلى انتصار شعري.

وانشـغل جينيه في السنوات التي تلت حركة الطلاب في أيار ١٩٦٨ بالدفاع عن القضايا السياسـية فساند إضرابات الطـلاب وفي عام ١٩٧٠ تعاضـد مع مفكرين أمثـال رونالد كاسـتر ومارغريـت دوراس وبيير فيدال ناكيت للدفاع عن العمال كما اشترك في حركات دعم السجناء ثم سافر إلى الولايات المتحدة ليدعم حركات الزنوج حيث أخذ يتحدث باسمهم ضد البيض.

ومن تلك التجارب برز العديد من إبداعاته في المسـرح كمسرحية الشرفة التي يصور فيها أحداثاً تاريخية في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي كالثورة الإسبانية ومسرحية الزنوج وفيها يصور إفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية وأيضاً السـتائر عن حرب تحريـر الجزائر وأعمال كثيـرة مثل طقـوس الجنازة ويوميـات لص وفي جميع مسرحياته كان يمزج بين الشعر والمسرح.

أمـا نضاله الذي بلـغ أعلى ذراه فهو مـن أجل حقوق الشـعب الفلسـطيني وكلفه ذلك حقـداً كبيراً انصب عليـه خاصة بعـد وفاته حيث كان أول شـخص غربي يدخل مخيمات صبرا وشاتيلا بعد المجزرة التي ارتكبها الإسـرائيليون ليروي ما رآه من فظاعات في كتابه أربع سـاعات في شـاتيلا وربما كانت كتابتـه بعيد خروجه مـن مخيم شـاتيلا في أيلول١٩٨٢ مـن أهم ما كتبت عـن المجـزرة التي ارتكبت بحـق الآلاف من اللاجئين الفلسـطينيين لاسـيما أنها تمت بعد رؤيته بأم العين لأبشع جرائم البشرية.

يقـول جينيـه.. إذا نظرنا بانتباه إلى ميـت فإن ظاهرة غريبة تلفت نظرنا فغياب الحياة في هذا الجسد يعادل الغياب الكلي لهذا الجسـد ووسط جميع الضحايا التي تعرضت للتعذيب لا يستطيع ذهني أن يتخلص من تلك النظرة اللامرئية كيف كان شـكل ممارِس التعذيب من هو إنني أراه ولا أراه إنه يفقأ عيني ثمَ يتساءل صاحب الخادمـات كم يلزم من الأمتـار لتكفين مثل هذا العدد الكبير من الموتى وكم من الصلوات.

ويعبـر أيضاً عن همجيـة القاتل بقولـه.. إن قاتلين قد أنجزوا العمليـة لكن جماعات عديدة من فرق التعذيب هي في غالب الظن التي كانت تفتح الجماجم وتشرح الأفخاذ، وتبتر الأذرع والأيدي والأصابع وهي التي كانت تجر بواسطة حبال محتضرين معوقين رجالاً ونساءً كانوا لا يزالون على قيد الحياة.

إن هذه الشهادة الشـخصية نشرها الأديب الفرنسي جان جينيه في مجلة الدراسات الفلسطينية بالفرنسية ثم نشر نصها العربي في العدد السابع من مجلة الكرمل عام ١٩٨٣ مبيناً مقدار اللاإنسانية في أفعال القتلة من القوات اللبنانية والإسرائيليين والتي تفوق أي تصور جعلته ينتقل من الصورة التي تنقلها وسـائل الإعلام إلى أخرى أكثر صدقاً لاسـيما في ظل حساسـيته الشـعرية العالية في نقل مسرح تلك الجريمـة البشـعة بكل مـا تحويه مـن سـينوغرافيا خاصة بالمـوت بصيغته الجماعية كما أن معايشـته لحياة اللاجئين الفلسـطينيين لشهور ومشـاهدته لمعاناتهم هي ما دفعه لكتابة الأسير العاشق عام ١٩٨٦.

كتـب جينيه خمس مسـرحيات فقـط و كان لهـا تأثير مهم وخاصة خلال الخمسـينيات والسـتينيات ومنـذ ذلك الحين انتعشت مسرحيتا الخادمات والشرفات في العالم وترجمتا إلى عدة لغات وبعد نشـره كوريـل من بريخت تخلى جينيه عـن الروايـة وكرس نفسـه لكتابة الدراما التي شـكلت له وسـيلة يظهر فيها من خلال هيئـات أخرى يتحدث بأصواتها دون الحاجة إلى أن يؤكد هويته مباشرة.

أمـا روايات جينيه فلم تكن في الواقع منشـغلة برواية قصة وإنما تسـتمد أصالتها في مشـاهدها أو صورها التي تصوغ سلسلة الإيماءات التمثيلية القليلة المهمة والمحشوة من خلل سرديتها وتمنح تلك المشاهد أهمية واضحة الإيماءات ذات الرمزيـة المعقـدة والشـعائر المليئـة بالمغـزى التي تنتـج تأثيرات غريبة في الرواية وتجد مكانها الشـرعي في مسرح الأسطورة الذي تعود تقاليده إلى المسرح الإغريقي والصيني .

وقبل وفاتـه أوصى جينيه أن يدفن فـي المغرب البلد الذي أحبه أكثر من كل البلدان الأخرى التي زارها وأقام فيها وهو يرقد الآن بمدينة العرايش الواقعة على بعد سـتين كيلومترا جنوب طنجة.

من (أربع ساعات في شاتيلا):

منذ انقطعت الطرق، وصمت التليفون، وحَرِمْتُ من الاتصال بالعالم، أحسستني، لأول مرة في حياتي، أصير فلسطينياً وأكره إسرائيل.

×××

لكن جماعات عديدة من فرق التعذيب هي، في غالب الظن، التي كانت تفتح الجماجم وتشرح الافخاذ، وتبتر الأذرعة والأيدي والاصابع، وهي التي كانت تجر، بواسطة حبال، محتضرين معاقين، رجالاً ونساءً كانوا ما يزالون على قيد الحياة.

×××

أما عن النساء وجمالهن، فإن تفسير تألقهن سيستلزم مناقشة طويلة ومعقدة. أكثر من الرجال ومن الفدائيين في المعركة، كانت النساء الفلسطينيات يبدين قادرات على مساندة المقاومة، وتقبُّل التجديدات التي تحملها الثورة. كُنَّ قد عصين العادات: نظرة مباشرة مساندة لنظرة الرجال، رفض للحجاب، شعورهن مرئية، وأحياناً مكشوفة تماماً، أصوات من دون تصدُّع.

×××

على الشاكلة نفسها، كان الفدائيون الفلسطينيون، وقد انعتقوا من مخيمات اللاجئين، ومن أخلاق المخيم ونظامه، تلك الأخلاق التي فرضتها ضرورة الاستمرار في العيش، وانعتقوا في الآن نفسه من العار، جد جميلين.

في الذكرى المئوية لميلاده:
جان جينيه، الجندي العاشق

مضت مائة عام على ميلاد الأديب الفرنسي جان جينيه في باريس ومضى زهاء ربع قرن على مقامه بيننا في مقبرة متواضعة تطل على زرقة المحيط الأطلسي وصخبه من أعلى ربوة هادئة بمدينة العرائش المغربية. للتمعن في سر العشق الذي دفع بالكاتب إلى هاته الهجرة العكسية التي أقصى من خلالها ذاته من الغرب والشمال ليهبها إلى الشرق والجنوب معا ، لا بد من الوقوف على ماضي جينيه الجندي الذي جعله يتعرف على العرب لأول مرة ليحبهم ثم يتمادى في غضبه ونقمته على الغرب.

د. عائشة البصري

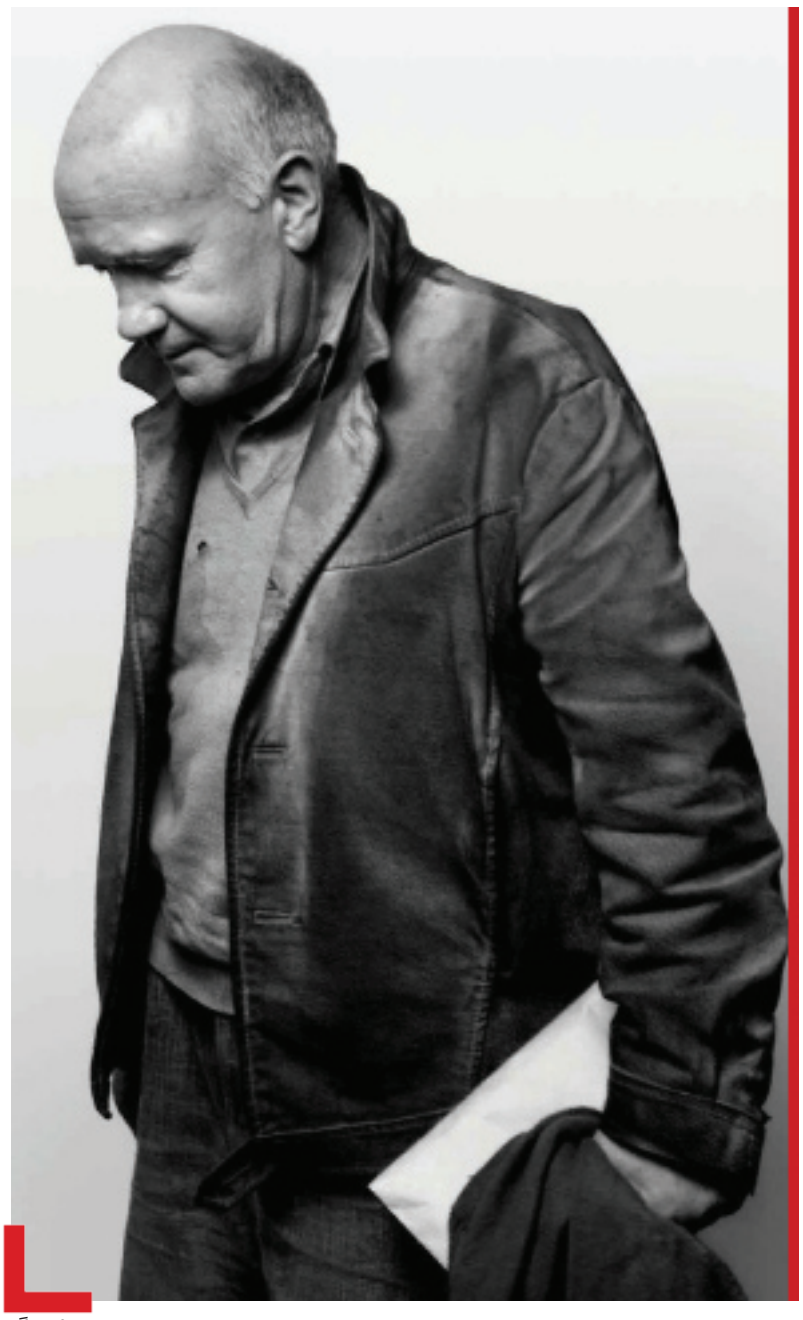

ولد جينيه في التاسع عشر من شهر كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩١٠ من أب مجهول وأم تخلت عنه بعد مضي بضعة أشهر على ولادته ليصبح تحت وصاية المؤسسة العامة لرعاية اللقطاء التي عهدت به بدورها الى أسرة في إحدى قرى منطقة المورفان الفرنسية ليتربى في ظلها حتى يبلغ الثالثة عشرة من عمره. وما أن أجبر على ترك هذه الأسرة التي أحبته وأحسنت إليه إلا أن تحول الفتى جينيه الى متمرد وثائر وغاضب على جميع أعراف وأخلاقيات المجتمع ومؤسساته الحكومية التي لاحقته وحاكمته باستمرار. هكذا دخل جينيه حلقة التشرد والتوقيفات والإحتجازات التي انتهت به في مؤسسات العقاب بما فيها سجن القاصرين الذي كان يعرف بالإصلاحية الزراعية والذي سيقبع فيه الشاب منذ الخامسة عشرة من عمره الى أن يبلغ التاسعة عشرة حين التحق بالجيش الفرنسي.

جينيه جندي في أرض العرب

من أجل الخروج من سجن القاصرين قبل سن الحادية والعشرين، إرتأى جينيه أن يستبق استدعاءه للخدمة العسكرية في آذار/ مارس ١٩٢٩. إذ تطوع في الجيش لمدة سنتين في صفوف الفيلق الأجنبي الذي كان يتكون من فرنسيين وأجانب في خدمة حملات فرنسا الإستعمارية. لم يكن دافع جينيه نزعته الوطنية بقدر ما دفع به اليأس والعوز للإرتماء في حضن جيش ووطن سيمقتهما لاحقا.

حط الجندي جينيه الرحال بدمشق في كانون الثاني/ يناير ١٩٣٠ إبان الاستعمار الفرنسي لسورية وسرعان ما اختلط عليه حقده على فرنسا بميوله نحو ضحاياها. في حديث له مع الصحافي الفرنسي بيرتران بوارو ديلبش في كانون الثاني/ يناير ١٩٨٢ وصف جينيه الشعور المُربك الذي انتابه حينذاك ودفع به لخيانة فرنسا من أجل كسب حب العرب قائلا: 'لقد كان شباب دمشق يستمتعون كثيرا بإطلاعي على الدمار الذي ألحقته بالمدينة مدافع الجنرال غورو. إذ صارت لدي رؤية مزدوجة للبطل والشخص الحقير والمقيت في نفس الوقت الذي كان يمثله غورو. هكذا سرعان ما أحسست بوقوفي الطبيعي إلى جانب السوريين. ربما كان هذا الإحساس في البداية يتسم بشيء من المَكر لكوني كنت أرغب أن ينظروا إلي نظرة حسنة، وأن يحبوني وأن يسمحوا لي بأن أشاركهم لعبة الورق'.

تجددت تجربة حبه للرجل العربي الممزوج بالمَكر والشعور بالذنب بتجديد الجندي جينيه لتطوعه في صفوف الجيش الفرنسي. ففي حزيران/ يونيو ١٩٣١ عاد جينيه ليتطوع من جديد في صفوف فوج المشاة المغاربة وهي وحدة من جيش فرنسا كان مقرها في مكناس. هكذا كان أول لقاء لجينيه مع المغرب والمغاربة كجندي محب مذنب خجول قضى تسعة شهور ما بين مدينتي ميدلت ومكناس قبل أن يتطوع مجددا في صفوف فرقة مشاة جزائرية مقرها بمدينة تول الفرنسية، ثم فرقة جند المشاة الكولونيالية بإيكس سان بروفانس. لكن يبدو أن تطوعه لخدمة فرنسا بعيدا عن مستعمراتها لم يرق لجينيه الذي قرر أن يهرب من الجندية في حزيران/ يونيو ١٩٣٦ ليسدل الستار على مرحلة العسكرية التي دامت زهاء ست سنوات. فضل جنية إلتزام الصمت عن ماضي الجندية بل إنه اختزله في 'بضعة شهور' في كتابه 'مذكرات لص' الذي يروي فيه ابن فرنسا الشقي سيرته الذاتية كما تُروى أساطير الإلياذه والأوديسة. يقول:

'إن الشعور بالكرامة الذي يمنحه الزي العسكري للفرد، والعزلة عن العالم التي يفرضهاهذا الزي بالإضافة الى مهنة الجندي نفسها، وهبتني قسطا من الراحة والثقة بالنفس حتى ولو أن الجيش يوجد على هامش المجتمع-. مما خفف من وضعي كطفل تم إذلاله بشكل طبيعي. هكذا استمتعت برفق استضافة الرجال لي'.

لا شك أن جينيه يقلل هنا من شأن ماضي الجندية الذي يتناقض مبدئيا مع صورة الكاتب الهامشي التي رسمها لنفسه، ليفسح مجالا أكبر لكل ما يغذي ويخدم أسطورة اللقيط، اللص، السجين، المِثلي، المناهض للإستعمار والمناصر للمستضعفين. ربما حاول جينيه أن يتحاشى أن يذكره البعض بأنه قبل أن يثور على فرنسية فرنسا فإنه كان جزءا من آلتها الإستعمارية وإن كان ذلك على مضض وأن يذكره آخرون بأنه ربما كان قد خان العرب قبل أن يصاحبهم. لكن مثل هذه الإتهامات قد تبطلها فلسفة الأديب نفسها التي تمجد الخيانة كفضيلة مقدسة بل تحتفي بازدواجية الخيانة التي طبعت علاقته بالعرب والغرب في آن واحد. فإن كان الكاتب قد خان العرب بخدمته لفرنسا الإستعمارية فانه قد خان هاته الأخيرة أيضا بمناصرته لشعوب مستعمراتها وبحبه للرجل العربي على وجه الخصوص.

فعلى كل من يعشق جان جينيه أن يدرك بأنه ليس للوفاء والإخلاص وغيرهما من القيم المعتادة مكانة في كتاباته التي تنبذ القيم التي يصفها جينيه بالبورجوازية ليستبدلها بالخيانة والسرقة والحب المثلي في العالم الهامشي الشهواني المنشق الذي نصبه لقرائه؛ عالم يصعب فيه فصل مساندة جينيه للقضية الفلسطينية والمقاومة الجزائرية وحقوق المهاجرين المغاربيين عن نظرته العاشقة والمِثلية للعالم. ففي مقابلة له مع هوبرت فيشت في العام ١٩٧٦ أفصح جينيه عن مدى تداخل مواقفه السياسية وميوله الجنسية: 'كنت ربما سأقف معهم (الجزائريين) في كافة الأحوال غير أنه ربما مِثليتي هي التي جعلتني أرى أن الجزائريين ليسوا مختلفين عن باقي الرجال'.

لقد كان للإيروسية (الشهوانية) العربية التي ألهمت أندريه جيد وغيره من الأدباء الغربيين وقع خاص على جينيه لدرجة جعلت الحب والأدب والسياسة تمتزج عنده امتزاج العاطفة والجسد بالفكر. فليس من الغريب في شيء أن تكون علاقته بعبد الله بن تاكا الشاب الألماني من أصل جزائري الراقص على الحبال قد ألهمته كتاب 'الراقص على الحبال' الذي يعد من أعمق ما كتب عن جمالية الرقص، فكان لانتحار عبد الله في ربيع ١٩٦٤ أثر بليغ على الكاتب الذي أحرق مخطوطاته قبل أن يحاول الإنتحار بدوره.

مع الفدائيين الفلسطينيين

فقد جينيه رغبته وقدرته على الكتابة إثر هذا الحادث المأساوي ولم يعرف للكتابة والحياة معا طعما إلا بعد لقائه بالفلسطينيين في أوائل السبعينات وزيارته للفدائيين والعيش في مخيماتهم ومعاينة مجزرة صبرا وشاتيلا التي دونها بطريقته في 'أربع ساعات في شاتيلا' ، كما روى عشقه للفلسطينيين من خلال 'الأسير العاشق' آخر كتاب له يتداخل فيه التاريخ والشعر والسياسة.

لا شك أن مناصرة جينيه للقضية الفلسطينية تدخل في اطار رفض الهامش للمركزية الغربية التي عاقبته بينما تدعي الحرية وآلة الحرب العالمية التي تساند العدوان بينما تدعي السلام. لكن هذه الإعتبارات لا تنفي الجانب الإيروسي الذي جعله يقدم حبه للفلسطينيين على شرعية القضية بعينها :'الحق كل الحق مع الفلسطينيين لأني أحبهم' يقول جينيه. كما يضيف قائلا في أربع ساعات في صبرا وشاتيلا :'إن الوضوح البديهي العجيب لما حدث، وقوة تلك السعادة المرافقة لوجودهم (الفلسطينيين)، يسميان أيضاً: الجمال'. وعن جمال الفلسطينيين و'شهوانية' الثورة الفلسطينية تحدث جينيه بإسهاب بشكل أدهش بل أحرج أكثر من قارئ:

'إن التأكيد على وجود جمالٍ خاص بالثوريين يطرح صعوبات كثيرة. من المعلوم ـ بل من المفترض ـ ان الأولاد الصغار، أو المراهقين، يعيشون في أوساط عتيقة قاسية، ولهم جمال في الوجه والجسد والحركة والنظرات، يقرب كثيراً من جمال الفدائيين (...) كانت قد ترسبت كل الحساسية الشهوانية التي حررتها الثورة والبنادق. علينا ألا ننسى البنادق. فقد كانت كافية، وكل واحد كان مفعما بالرغبات. (ترجمة من كتاب 'أربع ساعات في صبرا وشاتيلا' نُشرت في مجلة 'الكرمل'، العدد السابع، ١٩٨٣)

الحقيقة أنه حين يتعلق الأمر بجان جينيه يستحيل اختزال علاقته بالفلسطينيين في القضية نفسها ـ بغض النظر عن إيمانه بصوابها ـ بل يجب الأخذ بعين الإعتبار بقيمه الأخرى مثل الجمال والموت والعنف والعزلة: 'هل كنت لأحب الفلسطينيين لو لم يجعل منهم الظلم شعبا مشردا؟' يتساءل جينيه الذي طالما ردد ' أنا مع كل انسان وحيد'، 'أحب من أحب وهم دائما أشخاص جميلون وأحيانا مضطهدون لكنهم صامدون في ثأرهم'. حسب منطق جينيه، يحق لنا أن نتساءل بدورنا: هل كان لجينيه أن يحب المغرب الى اللحد لولا تعلقه بتشرد وفقر محمد القطراني ذلك الشاب العرائشي الذي يحكى أن الكاتب كان قد عثر عليه مستلقيا على الأرض نائما في أحد أزقة المدينة القديمة في طنجة؟ ألم يجد الكاتب نفسه منجذبا إلى هذا الشاب الفقير الذي فر من الجندية لأنه ربما ذكره بجينيه الجندي الهارب اللص الشريد؟

'لم يكن محمد القطراني مثليا جنسيا، غير أن جينيه أفهمني مرارا وتكرارا بأنه لم يكن يمارس الجنس مع هذا الشاب. أقدم على تزويجه من امرأة كانت جارة لأسرته وأنجب منها طفلا سارع جينيه إلى تسميته بعز الدين وهو الإسم الشخصي لممثل منظمة التحرير الفلسطينية في باريس 'عز الدين القلق' الذي اغتالته المخابرات العراقية عام ١٩٧٨'. يقول الطاهر بن جلون في أحد مقالاته موضحا، بل معقدا علاقة جينيه بالعرب التي قد يرى فيها البعض شيئا من الإحراج بيد أن كاتب 'يوميات لص' لا يرى فيها إلا مزيدا من الحرية: 'كلما كبر ذنبي في عيونكم، أفترض أن تكون حريتي أكبر' يقول جينيه الذي يحبه كل من يضع الحرية فوق كل اعتبار.

عن القدس العربي

أربع ساعات في شاتيلا

بالنسبة إلي، أن تكون كلمة «فلسطينيون» موضوعة في العنوان، أو في صلب مقالة، أو على منشور سرّي، فإنها تستحضر في ذهني مباشرة الفدائيين في مكان معين هو: الأردن، وخلال فترة يمكن تحديدها بسهولة. ففي هذه الفترة وفي ذلك المكان، عرفت الثورة الفلسطينية. إن الوضوح البديهي العجيب لما حدث، وقوة تلك السعادة المرافقة لوجودهم، يسميان أيضاً: الجمال.

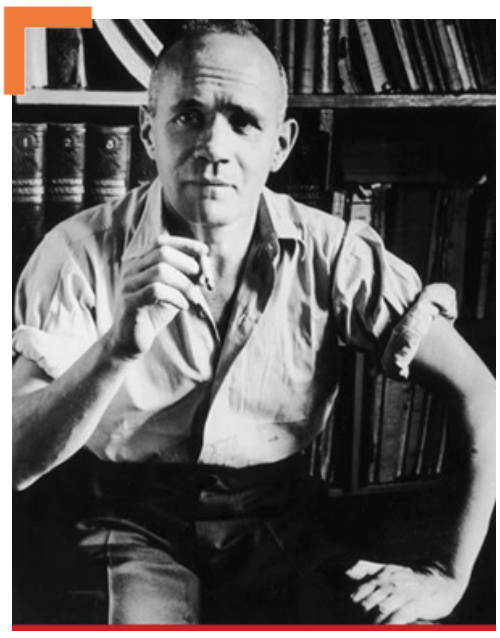

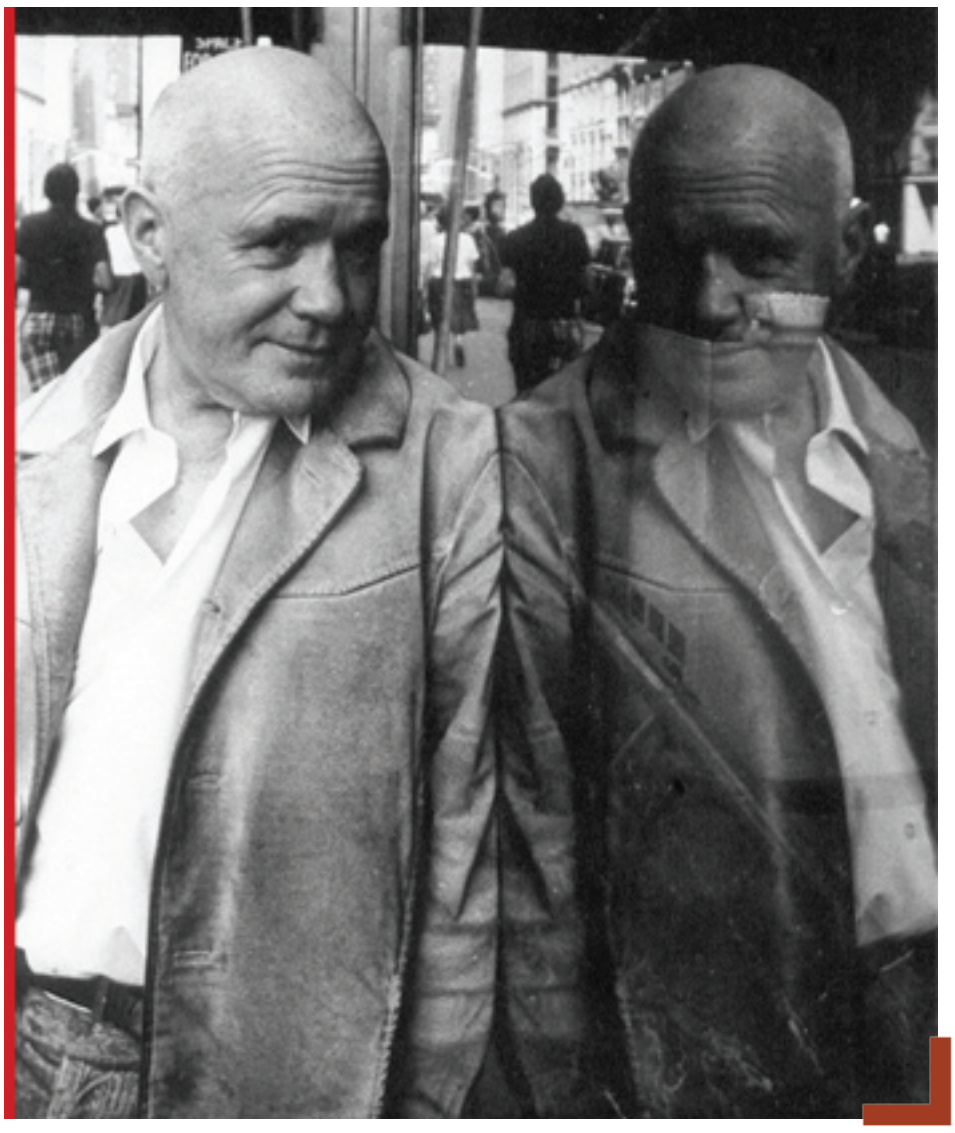

جان جينيه

مرّت عشر سنوات ولم أعرف عن الفدائيين شيئاً سوى أنهم كانوا في لبنان. كانت الصحافة الأوروبية تتحدث عن الشعب الفلسطيني، بوقاحة، بل وباستخفاف. وفجأة: بيروت الغربية.

للصورة الشمسية بُعدان، وكذلك لشاشة التلفزيون، إلا أنهما كلاهما لا يمكن ان يعبرهما الانسان او يطوف داخلهما. من جدار الى جدار، داخل زقاق الأرجل المقوسة أو المدعمة التي تدفع الحائط، والرؤوس المتكئة بعضها على بعض، والجثث المسودّة المنتفخة التي كان عليّ أن أتخطاها، كلها كانت جثث فلسطينيين ولبنانيين.

إن الصورة الشمسية لا تلتقط الذباب، ولا رائحة الموت البيضاء والكثيفة. إنها لا تقول لنا القفزات التي يتحتم القيام بها عندما ننتقل من جثة الى أخرى.

الحب والموت، هاتان الكلمتان تتداعيان بسرعة كبيرة عندما تكتب احداهما على الورق. لقد كان عليّ أن أذهب الى شاتيلا لأدرك بذاءة الحب وبذاءة الموت. فالأجساد، في الحالتين ليس لديها ما تخفيه. كان جسم رجل فيما بين الثلاثين والخامسة والثلاثين ممدداً على بطنه، والجزء الوحيد من وجهه، الذي تمكنت من رؤيته، كان بنفسجياً وأسود. وفوق الركبة بقليل، كان فخذه المثني يكشف جرحاً تحت الثوب الممزق. ما أصل الجرح: حربة، أم سكين، أم فأس، أم خنجر؟ ذباب فوق الجرح وحوله. والرأس أكبر من بطيخة، بطيخة سوداء. سألت عن اسمه.

ـ فلسطيني، أجابني رجل فرنسي في الأربعين وقال: انظر ما فعلوا.

وسط جميع الضحايا التي تعرضت للتعذيب، وبالقرب منها، لا يستطيع ذهني أن يتخلص من تلك «النظرة اللامرئية»: كيف كان شكل ممارس التعذيب؟ من هو؟ إنني أراه ولا أراه. إنه يفقأ عيني، ولن يكون له أبداً شكل آخر سوى الشكل الذي ترسمه وضعية أجساد الموتى، وإشاراتهم الخشنة، وهم تحت الشمس، تنهبهم أسراب الذباب.

لننظر الى المسألة عن قرب: منظمة التحرير الفلسطينية تغادر بيروت بكرامة، فوق باخرة إغريقية ترافقها حراسة بحرية. بشير الجميل يزور بيغن في إسرائيل متخفياً ما أمكن. القوات الدولية (الأميركية والفرنسية والإيطالية) تنهي وجودها يوم الاثنين وتغادر. يوم الثلاثاء يقتل بشير، وصباح يوم الأربعاء تدخل القوات الإسرائيلية الى بيروت الغربية. وبما أن الجنود الإسرائيليين أتوا من جهة الميناء، فقد كانوا يزحفون على بيروت صباح دفن بشير الجميل. ومن الطابق الثامن للعمارة التي أسكنها، كنت أراهم، بواسطة منظار مقرّب، يصلون في شكل صف هندي: صف واحد. تعجبت من أن لا شيء آخر يحدث، لأن بندقية منظار جيدة كانت قادرة على ان تُسقطهم جميعهم. لكن وحشيتهم كانت تسبقهم.

كانت إسرائيل قد تعهدت أمام فيليب حبيب، ممثل الحكومة الأميركية، بألا تدخل بيروت الغربية، وتعهدت ان تحترم سكان المخيمات الفلسطينية المدنيين. وقد وعد حبيب عرفات بإطلاق سراح تسعة آلاف سجين معتقلين في إسرائيل... لكن، يوم الخميس بدأت مذابح شاتيلا وصبرا.

أتنقل من جثة الى أخرى، ولعبة الوزة هذه ستنتهي حتماً الى هذه المعجزة: شاتيلا وصبرا يُمحيان. كانت المرأة الفلسطينية مسنة، في غالب الظن، لأن الشيب كان يمازج شعرها. كانت ممددة على ظهرها. اندهشت، أول الأمر، لوجود جديلة غريبة، من قماش وحبل، ممتدة من معصم الى معصم آخر، رابطة بذلك الذراعين المتباعدتين، وكأنهما مصلوبتان. والوجه الأسود المنتفخ مستدير نحو السماء، كاشفاً عن فم مفتوح ملأته قتامة الذباب، وأسنانه ظهرت لي جد بيضاء. كان هذا الوجه يبدو، من دون ان تتحرك عضلة فيه، إما كأنه يُقطب، أو يبتسم، أو يصرخ صرخة صامتة مسترسلة. كانت جواربها من الصوف الأسود، والفستان ذو الأزهار الوردية والرمادية مشمراً قليلاً، أو أنه جد قصير، لست أدري، مما يجعله يكشف عن أعلى ربلتي الساقين السوادوين المنتفختين.

ـ انظر يا سيدي، انظر الى يديها.

لم أكن قد لاحظت ذلك، فأصابع يديها، كانت مروحية الشكل، والأصابع العشرة مقطوعة بمقص. لا شك ان جنوداً قد استمتعوا وهم يكتشفون هذا المقص ويستعملونه، ضاحكين مثل أولاد وهم يغنون فرحين.

في اليوم التالي لدخول الإسرائيليين أصبحنا سجناء، إلا أنه خُيّل إلي بأن الغزاة لم يكونوا موضع خشية بقدر ما كانوا موضع احتقار، وكانوا يبعثون على الغثيان أكثر مما كانوا يحدثون الرعب. لم يكن أي جندي يضحك أو يبتسم. والزمن هنا لم يكن بالتأكيد زمناً لنثر حبات الأرز والورود.

منذ انقطعت الطرق، وصمت التليفون، وحُرِمْتُ من الاتصال بالعالم، أحسستني، لأولَ مرة في حياتي، أصير فلسطينياً وأكره إسرائيل.

إن التأكيد على وجود جمالٍ خاص بالثوريين يطرح صعوبات كثيرة. من المعلوم ـ من المفترض ـ ان الأولاد الصغار، أو المراهقين، يعيشون في أوساط عتيقة قاسية، ولهم جمال في الوجه والجسد والحركة والنظرات، يقرب كثيراً من جمال الفدائيين. وقد يكون تفسير ذلك هو الآتي: بتكسيرهم للأوامر، والقيود العتيقة، أخذت حرية جديدة تشق طريقها عبر الجلود الميتة، وسيجد الآباء والجدود مشقة في إطفاء بريق العيون، وكهرباء الأصداغ، وحبور الدم في النسوغ.

خلال ربيع عام ١٩٧١، عندما كنت أزور القواعد الفلسطينية، كان الجمال منتشراً بذكاء وسط غابة تنعشها حرية الفدائيين. وفي المخيم كان الجمال مختلفاً، مكتوماً بعض الشيء، ينشر ظلاله من خلال سيادة النساء والأطفال. كانت المخيمات تتلقى نوعاً من الضوء الصادر عن قواعد القتال. أما عن النساء وجمالهن، فإن تفسير تألقهن سيستلزم مناقشة طويلة ومعقدة. أكثر من الرجال ومن الفدائيين في المعركة، كانت النساء الفلسطينيات يبدين قادرات على مساندة المقاومة، وتقبُّل التجديدات التي تحملها الثورة. كُنَّ قد عصين العادات: نظرة مباشرة مساندة لنظرة الرجال، رفض للحجاب، شعورهن مرئية، وأحياناً مكشوفة تماماً، أصوات من دون تصدُّع.

كل يوم، خلال شهر كامل، ودائماً في «عجلون»، كنتُ أرى امرأة نحيفة لكنها قوية، مقرفصة، في البرد، كأنها في وضع الاستعداد لانطلاق مفاجئ. كانت المرأة ترتدي فستاناً أسود مزيناً بشرائط على حافته وعند الاكمام. كان وجهها قاسياً، لكنه لم يكن حقوداً، متعباً لكنه ليس مضجراً. كان المسؤول عن المغاوير يهيئ غرفة خالية تقريباً، ثم يشير إليها فتدخل الى الغرفة، وتغلق الباب، لكن من دون مفتاح. ثم تخرج من غير ان تتفوه بكلمة، ومن غير ابتسامة على محياها.. كانت تعود منتصبة، الى جرش، حيث مخيم «البقعة». وقد عرفت، فيما بعد، ان المرأة كانت عندما تدخل الى الغرفة المخصصة لها في مقر الحراسة، ترفع فستانيها الأسودين وتفك جميع الأظرفة والرسائل التي كانت مخاطة داخلهما، وتطرق الباب طرقاً خفيفاً لتسلم الرسائل الى المسؤول، ثم تخرج وترحل من دون أن تتفوّه بكلمة. كانت تعود في الغد.

منذ مساء يوم الخميس. يا لها من حفلات ومن مآدب فاخرة تلك التي أقيمت حيث الموت كان يبدو وكأنه يشارك في مسرَّات الجنود المنتشين بالخمرة وبالكراهية. ولا شك انهم كانوا منتشين، أيضاً، بكونهم قد نالوا إعجاب الجيش الإسرائيلي، الذي كان يستمع وينظر ويشجع ويوبخ المترددين في قتل الأبرياء. إنني لم أرَ هذا الجيش الإسرائيلي رؤية العين والأذن، غير أنني رأيتُ ما فعله.

في الليل، تحت ضوء الصواريخ الإسرائيلية التي كانت تنير المخيمين، فإن خمسة عشر رامياً، أو عشرين، ولو بأفضل الأسلحة، ما كان بوسعهم أن ينجحوا في تحقيق هذه المجزرة. إن قاتلين قد أنجزوا العملية، لكن جماعات عديدة من فرق التعذيب هي، في غالب الظن، التي كانت تفتح الجماجم وتشرح الافخاذ، وتبتر الأذرعة والأيدي والاصابع، وهي التي كانت تجر، بواسطة حبال، محتضرين معاقين، رجالاً ونساءً كانوا ما يزالون على قيد الحياة.

إن الموتى الذين أجدهم، عادة، وبسرعة، مألوفون، بل ودّيون، ولم أستطع أن أميز فيهم، وأنا أنظر الى قتلى المخيمات، سوى كراهية وسرور أولئك الذين قتلوهم. حفلة وحشية جرت هناك: سمر، نشوة، رقص، غناء، نداء، عويل، تأوهات... على شرف متفرجين كانوا يضحكون وهم جالسون في الطابق الأخير من مستشفى عكا.

قبل حرب الجزائر، لم يكن العرب، في فرنسا، جميلين. كانت حركاتهم بطيئة، متلكئة، ووجوههم جانبياً باستمرار... وفجأة، تقريباً، جمَّلهم الانتصار.

على الشاكلة نفسها، كان الفدائيون الفلسطينيون، وقد انعتقوا من مخيمات اللاجئين، ومن أخلاق المخيم ونظامه، تلك الأخلاق التي فرضتها ضرورة الاستمرار في العيش، وانعتقوا في الآن نفسه من العار، جد جميلين.

فالفتيات الفلسطينيات يصبحن جد جميلات عندما يتمردن على الأب، ويكسرن إبر التطريز ومقصاته فوق جبال عجلون والسلط وإربد. وعلى الغابات نفسها، كانت قد ترسبت كل الحساسية الشهوانية التي حررتها الثورة والبنادق. علينا ألا ننسى البنادق. فقد كانت كافية، وكل واحد كان مفعم الرغبات.

في شاتيلا مات الكثيرون من هؤلاء الفدائيين، ولكن صداقتي ومودّتي لجثثهم الآخذة بالتعفن، كانتا أيضاً كبيرتين. لأنني كنت قد عرفتهم من قبل. إنهم، وقد انتفخوا، واسودّوا، وعفَّنتهم الشمس والموت، يظلون فدائيين.

بالقرب من نهر الأردن، كان الفدائيون يبدون متأكدين من حقوقهم، ومن سلطتهم، لدرجة أن وصول زائر، ليلاً أو نهاراً، الى أحد مراكز المراقبة، كان مناسبة لحضور الشاي، وتبادل الحديث المصحوب بالضحكات، والقبلات الأخوية (الشخص الذي كانوا يقبلونه كان يرحل تلك الليلة، ويخترق نهر الأردن ليضع قنابل داخل فلسطين، وفي غالب الأحيان لم يكن يعود). وجُزُر الصمت الوحيدة كانت هي القرى الأردنية: كان الفدائيون يغلقون أفواههم عندما يصلون إليها. كانوا جميعهم يظهرون وكأنهم محمولون قليلاً فوق سطح الأرض بتأثير كأس نبيذ نفاذ. ما الذي كان يُسبغ عليهم ذلك المظهر؟ انه الشباب اللامبالي بالموت، والذي كان يحصل على أسلحة تشيكية وصينية تتيح له ان يُطلق الرصاص في الهواء. محميين بأسلحة لها دوي عال، لم يكن الفدائيون يخشون شيئا. لم يكن الفدائيون يريدون السلطة، فقد كانوا يمتلكون الحرية.

عند عودتي من بيروت، وفي مطار دمشق، قابلت فدائيين شباباً نجوا من الجحيم الإسرائيلي. كان عمرهم ست عشرة أو سبع عشرة سنة: كانوا يضحكون، وكانوا شبيهين بفدائيي عجلون. انهم سيموتون مثلهم. فالمعركة من أجل البلاد يمكن أن تملأ حياة جد غنية، لكنها قصيرة. وهذا، كما نذكر، هو اختيار أخيل في ملحة الإلياذة.

* شهادة شخصية نشرها الأديب الفرنسي جان جينيه في مجلة «الدراسات الفلسطينية» بالفرنسية، ثم نُشر النص العربي في مجلة «الكرمل»، العدد السابع، ١٩٨٣

عن ملحق فلسطين / السفير

بـكل عدد ومـن هالقرنة الصغيـرة رح أحكيلكو عـن غنّـاي إلهـا حـكاي أو "خُرّيفيّـة" ع قولة سـتي الله يرحـم روحهـا، رفيا الكبيـرة. كانت دايمـا تحكيلـي "تعي تـا أخرّفـك هالخُرّيفية" وتخرّفني عن البلاد والعِباد؛ عن أيام الصبا بعكّا وعن سيدي -أشـهر خيّاط قنابز بعرابة بهديك الأيام- والخيّالة وأعـراس زمان وأيام العُصملي وغيرهن كتير، وأكيـد في خراريف غير الغناني متـل الأمثـال الشـعبية وعـادات أهـل بلادنا بالزمانـات (ع قولة الصبوحـة: إيّام اللولو!) بس حبيـت البدايات تكون مع الغناني اللي انحفرت بالذاكرة الفلسطينية.

خرّيفية هالعدد عن زجليّة "يا حلالي يا مالي"، اللـي بتتـردد دائمـا بالأعـراس الفلسـطينية وبينزلوا الشـباب عليها بـ"السـحجة العربية". هالزجلية صارت توخد طابع مختلف من مناسبة لمناسبة، إشي اجتماعي إشي وطني إشي سياسـي، بـس بالنهايـة كلهن بيلتقـوا بـ"يا حلالي يا مالي".

بيقولـوا هاللـي بيقولوا إنو فـي قرية من قرى فلسطين عاش زلمة حياة فوق الريح، قصر إلو أول ما إلو آخر، حاشـية وحرس، مال ومواشي وأراضي، بعيد ومعزول عن أهل قريته، لا بيسأل فيهن ولا بيتلفّت لأحوالهن الصعبة. كانوا الناس بهالقرية عايشـين ع الزراعة وتربية المواشي متلهن متل غيرهن بالقرى التانية، وبسنة من السـنين ابتلـى ربنا البلاد بجفـاف وقلة مطر، فنشـفت الآبـار ويبس الزرع تـا راح منّو اللون، تغيرت أحوال الناس وانقلبت البسـاتين الخضرا لأرض جـردا، جاعـوا النـاس وانتشـر المرض ونفدت المونة وصاروا بأسوأ حال.

بلّشـت النـاس تتوجـه لقصـر الغني مشـان يستعطفوه، بلكي زعل ع حالهن وشفق عليهن وأعطاهن ولو شـي بسيط من الرزق اللي ربنا حطّو بين إيديه، بس سـلامتكو وتعيشـوا، دان مـن طين ودان من عجيـن، ردّهن خايبين وزاد الضّيم.

وبيـوم مـن الأيـام طلـع البخيل مع حاشـيته العريضة تا يشـقّر ع المواشـي ويتفقد الحلال بين حقول القرية ووديانها، بنفس الوقت كان كم واحد من شُـبّان القرية متفقين عليه وناطرينو، هجموا عليه وعالحرس وربّطوهن عند عين مـيّ بالوادي وأخـدوا كل الحلال والغنم ووزعوهن ع أهـل القرية، وبعدها راحوا ع القصر وجمعوا كل الأكل والشـرب اللي فيه وقسّموهن ع الفقرا والمسـاكين، وفرحوا النـاس وأجاهن الخلاص بعد صبر طويل.

بنفس النهـار صار إنو مرقت قافلـة تجارية من جنب العيـن ولاقوا البخيل واللي معو مربّطين، فكّوهـن ودغري ركض البخيل تا يشـوف شـو صـار بالحلال وما لاقى منو شـي، فصار يضرب كـف بكف ويصرخ "يا حلالي!" والحاشـية تعيد من وراه "يـا حلالي!"، وبعدهـا وصل ع القصر وخبّـروه الخدم إنو المال وكل ما في القصر من أكل وشـرب راح، رجع يضـرب كف بكف ويصيح "يا مالي!" والحاشية تعيد من وراه "يا مالي!"، وضـل ينـدب ويصيـح "يا حلالـي! يـا مالي!" ويضرب كف بكف من النـدم، ومن يومها صارت مثل وأغنية خالدة بتتردد بالأعراس وجلسـات السمر كنوع من التذكير بمصير أي غني بخيل ما بيتلفت للمحتاج تا يعينو..

الزجلية بالطابع الاجتماعي
http://www.youtube.com/watch?v=JHHTzUczorU
الزجلية بالطابع الوطني
الزجليّـةhttp://www.youtube.com/watch?v=s٤j٣WuTwOL
بالطابع السياسي
المصدر:http://www.youtube.com/watch?v=monf٩KfaDEs
روايات متناقلة من مواقع مختلفة

بر–حيرة–بحر..
جديد راجي بطحيش

الناصرة - رمّان

عن دار أزمنة في عمان صدر مع مطلع العـام ٢٠١١ الكتـاب النثـري الجديـد للزميـل الكاتـب الفلسـطيني ابـن الناصرة راجي بطحيـش، تحت عنوان "بر-حيرة- بحر". وعرّف الناشـر الكتابَ الـذي يقع في ١١٠ صفحـة على أنه بورتريـه منثـور، فيما قامـت بتصميم غلافـه الفنانـة الفلسـطينية (ابنـة الناصـرة أيضًـا) والمقيمة فـي لندن، غريس عبدو.

"بر-حيرة-بحـر" هو محاولة من الكاتب للقيـام بعملية مونتـاج لحياته وأماكن تواجـده، حيـث يجلـس علـى مـدار الصفحـات مـع المونتيـر فـي غرفـة المونتـاج ليزرع داخله مزيدًا ومزيدًا من الحيرة. وينجح الاثنان أحيانا ويفشـلان فـي معظـم الوقـت حين تقـف لهم بالمرصـاد عوامـل تلعـب دور البطولة في الكتاب، كفصول السـنة (لذلك تم تقسـيم الكتاب إلى أربعـة أبواب تعبر عن الفصـول الأربعة للسـنة)، إضافة إلى الأماكن حيث يلبس النصّ بشكل كامل أحجبة المكان الذي يتحدث عنه وعِباه الشعوري ويتمحور الكتاب خاصة حول مثلث "تـل أبيب-حيفا-الناصرة"، فـي محاولـة لنقش الشـكل الحالي لمـدن وطرقـات وملامـح فلسـطين ٤٨، كمـا تشـكل مسـألة "الارتطـام الإنساني" مع الغريب-العدو في النص بمثابـة الوقـود الـذي يشـحن محرك السّرد ليقوده نحو الانفجار أو التفكك.

"بر-حيرة-بحـر" هـو كتاب عـن الهوية الجنسـية والإغـواء والمـوت والكآبـة والأبوة والثقـل التاريخي العائلي وعن بيوت فارغة غادرها الجميع وعن فئات آخذة بالتلاشي.

يذكـر أنّ الكاتـب هو مـن المجموعة المؤسّسـة لموقـع "قديتـا" الثقافي والسياسـي (www.qadita.net) وهو يقوم حاليا بتحرير زاوية "مثليون ونص" التـي أثارت ضجة كبيرة وجدلا واسـعا لمـا تطرحه من مواضيع تخصّ الهويات الجنسية المتعددة وتسلط الضوء على مجتمعات "أحرار الجنس-الكويرز" في فلسـطين والعالم العربـي، كما يطل الكاتب بشكل دوري على قرّاء الجريدة عبر زاويته "من فرط الرمّان".

صدر للكاتـب أيضًا: "الظـلّ والصدى"، شـعر، الناصرة ١٩٩٨؛ "العري وقصائد أخرى"، شـعر، دار الشـروق- عمان، ٢٠٠٢؛ "حديقـة للشـتاء..ظل ربيـع ضـاع"، نثـر، دار الشـروق-عمان، ٢٠٠٣؛ "مجموعـات قصصيـة: بـدل الضائع "(٢٠٠٥)؛ "غرفة في تل أبيب" (٢٠٠٧)؛ ملح كثير..أرض أقل" (٢٠٠٩) الصادرة جميعها عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت.

مـن "بر-حيـرة- بحـر" نختـار المقطع التالي:

مشهد حالم وضبابي من أجواء المدينة التي أنهكها الحرّ

٢

ها أنا أقف عند موقـف الحافلات. يعبر بـاص رقـم ٤٠، تضع الفتاة الشـاحبة خدّهـا علـى الزّجـاج الملـوث.. في الداخل تحتمي عيونها بجسور وأنفاق المدينة وبانعكاسات أبراجها المنتصبة الجاهـزة للإيـلاج فـي ثقـب التاريـخ والجغرافيـة فـي أيـة لحظـة معطاة. تحتمي بجسـر المشـاة فوقها وفوق الحافلة.. يقطع صخـب جماعة الفتية اللاجئيـن من دارفـور حبـل أفكارها.. يتحـدث زعيـم الشـلة عـن مغامراته هو وأمه حين عبرا الحدود السـودانية المصريـة فالمصرية الإسـرائيلية فالإسـرائيلية الفلسـطينية فالعربيـة الإسرائيلية فالفلسطينية الفلسطينية فالشرقية الغربية فالإسلامية اليهودية فالإيرانيـة السـعودية فالموالاتيـة المعارضاتية.. فـي طريقهم إلى أرض البرتقال المهنـدس وراثيا يقول الزعيم الدارفـوري: "هل تشـاهدون؟ رصاصة الجندي المصري لا تزال في جيبي!" تحتمي الفتاة الشاحبة بخيالات جسر عملاق تتوارى جثـث القطط المتعفنة بيـن أعمدتـه.. تحتمـي مـن لحظـة حميميـة واحدة سـتجمعها بعد قليل مع أمهـا وأخيها حول ذكريـات طفولة بعيدة في قرية قرب تشرنوبيل، عندما تحوّلت الطابة الحمراء إلى كتلة صفراء من الحيرة.

(حماة الديار) لخالد تركي
إبداع في حفظ تاريخنا الغني

الدكتـور خالد تركي طبيب يسـهر علـى مرضـاه في المستشـفى الطليانـي في حيفـا , ولكنه مبدع فـي لغته العربية التي أشـعر وأنا أقـرأه أنهـا تنسـاب انسـيابا من دماغـه وعقله إلى قلمـه إن صح تعبيـري , وهـو رفيـق درب مقتنع بدربه ومسيرته حتى النخاع , تشعر أحيانا بانه لا يتوقف للتفكير لحظة ليراجـع بعضا من أخطاء المسـيرة النضالية التـي ربما تكـون قـد حدثـت , وكأنـه يقـول لمـن يقـرأه مزيـدا مـن الثبـات مزيـدا مـن الإلتصاق بالدرب أولا , وربما يقول هنا في هـذا الوطن الممهور بتضحيات رفاقنا في الجليـل والمثلـث والنقـب , نعم النقب كان لنـا رفاق ومازال لنـا رفاق وسـيبقى لنـا رفاق رغـم أنف الرجعيين والهادمين بيـوت العراقيـب وغيرهـا , وخاصـة مسيرة البقاء والتجذر بالوطـن لا حاجـة للإرتباك " فنحـن نورنا السـبيل في لهيب المستحيل بين نقب وجليل " .

مفيد صيداوي

يكتـب عن المسـيرة ومن سـاروها بمحبة وبإعجـاب وبإبداع أدبـي ولغـوي يذكرني جدا بكتابـات الشـاعر المناضل معين بسيسـو وأنـا أقـرأ دفاتره الفلسـطينية , النبـرة , التحدي , اللغـة التي يفرضها الحدث , يذكرني بكتاب "البدايات "للرفيق يعقـوب زيادين الطبيـب الشـيوعي الأردني الذي لـم يترك مبضع الطب ولا الرسـم النضالي بالكلمات , أذكره مع رفيقي الذي عايشـت إرهاصاته للكتابة عن الحزب والرفاق في كتاب "الشـجرة وارفة الظلال "المرحوم د. أحمد سعد الذي احببت فيـه تواضعـه وأصالته , وأذكره مع كتاب "الـدرب والرفاق "عن رفاق الحزب الشـيوعي اللبناني , أذكره بتواضع وأنا أذكر كيف جمعـت مقالتي في كتاب " كتابة على جدار الجامعة "وذللت المصاعب بين مطبعة وأخرى وكيف اقترضت تكاليف طباعته من أحد الأصدقاء وهو يحكي نفس الحكاية وبنفس النغمة , أذكره في أنغام كتاب " يوميات ختيار لم تمت أجياله" للرفيق توفيق كناعنه وكتاب "يوم الأرض" للرفيق عمر سـعدي وغيرهم ربما لم أحصل على كتبهم وربما نسيتهم فأطلب منهم المعذرة , د. خالد تركي ينتمي لهذا الدرب ولهذه الكوكبة ولذلك تشـعر بصدقه العاطفي بحماسه الشيوعي .

لـم يبالغ في تسـميتهم "حماة الديار" هؤلاء الشـباب الذين سـهروا الليالي ليكتبوا منشورا على ضوء شمعة وأحيانا بخط اليد , هؤلاء الذين سهروا للتخطيط لمظاهرة جبارة في قراهم ضد الحكم العسـكري وللدفاع عن طفل وعن طفلة , ألم يقل شـاعرهم شـاعرنا توفيق زيـاد "وأعطي نصـف عمري للذي يجعل طفلا باكيا يضحك " .

كتب عن الذين "شـقوا لنا الطريق بعرقهـم وكدهم وأناروا لنا دربنا بنور عطائهم وتفانيهم ... " من الإهداء .

كتـب عن الذين حلموا بتحطيـم القيود وببناء الكون جديدا حرا خاليا من الظلم والظلام وأولاد الحرام , حلموا بجنة على هذه الأرض الطيبـة خميلـة من الهناء والسـعادة وعدم اسـتغلال الإنسان لأخيه الإنسان في كل مكان على وجه البسيطة .

خالد تركي يعطـي للحالمين الذين ربما لم يحققوا حتى الآن هـذا الحلم الجميـل كل التقدير والإحترام , بـل يدعو لإكمال المسـيرة نحـو تحقيق الحلم , البعض يعاقـب الحالمين ويريد دفن كل تراثهم ويريد السخرية من حلمهم الجميل , في إحدى تنقلاتي مع رفيقي غازي شـبيطة (سـكرتير منطقة المثلث سابقا) , والرفيق رمزي خوري طيب الذكر مررنا بشخص وقد أصبـح غنيا من منطقة عكا ولكنه يعرف الرفيق رمزي , وإذا به يسأل بلهجة فيها نوع من الإستعلاء والسخرية قائلا : أما زلت تناضل يا أبا منذر ؟ فأجابه حالا : بكل تأكيد حتى ينتهي الظلم , وسـندافع أيضا عن أصحاب رؤوس الأمـوال الصغيرة جدا من العرب ... فصمت الرجل .

خالـد تركي في كتابـه " يؤثث " هذه المكتبـة العامرة والتي يجب أن تزيـد لهذا الدرب فمحاولات الهمـز واللمز والنيل منه كثيـرة ومصادرها عديدة وللإجيال الجديدة التي يحاولون جرها إلـى الجريمة والعنف والسـموم حاجـة موضوعية لمثل هذه المؤلفـات , وهي – أي المؤلفات – معين لا ينضب, فهنيئا لك أيها الطبيب العلمي والأدبي وإلى الأمام ومبروك .

الكتاب متوفـر على هـذا الرابـط: http://www.aljabha.org/files/homat-aldiyar.pdf

السنة الأولى
مروان عبد العال
اليسار العربي... أي رؤية وأي وظيفة للتغيير؟
إيليا سليمان
الزمن المتبقي
السينما الفلسطينية
عالمية القضية
الانتماء للوطن
غسان كنفاني
بلا اسم كأننا بلا رواية
عاشق من
فاروق وادي
18+